# قصَّة
# الزير أبو ليلى المهلهل

# قصَّة
# الزير أبو ليلى المهلهل

اعتنى به
كمال مرعي

بسم الله الرحمن الرحيم

أقول بعد حمد اللَّه، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه: هذه سيرة الأسد الكرار والبطل المغوار، الذي شاع ذكره في الأقطار وأذل بسيفه كل صنديد وجبار. المهلهل بن ربيعة صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة. وما جرى في تلك الأيام مع ملوك التبابعة وفرسان الصدام من الحوادث والوقائع التي تطرب القارئ وتسر السامع ولكن قبل الشروع في هذه السيرة العجيبة وأخبارها المطربة. رأينا أن نذكر طرفاً من أخبار العرب أهل الفضل والأدب. إفادة للمطالعين ونزهة للسامعين فنقول وباللَّه المستعان: إن أصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والأوان من ولد نزار بن معد بن عدنان وكان قد ولد لنزار المذكور أربعة أولاد من الذكور كل منهم بالفضل والبأس مشهور هم مضر وأنمار وإياد وربيعة فارس الطراد ومنهم تشعبت قبائل الأعراب وملأت البراري والهضاب فمن نسل إياد التبابعة الذين أخبارهم بين الناس شائعة ومن نسل ربيعة ومضر وأنمار عرب الحجاز ونجد والعراق وسكان القفار وكانت العرب في ذلك الزمن منقسمة إلى قسمين وهما قيس ويمن فسكان اليمن هم اليمنيون وباقي العرب هم القيسيون وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد في البر الأقفر حتى اشتهرت العشائر والقبائل وظهر الأمير ربيعة وأخاه مرة أبناء وائل. وربيعة المذكور هو أبو الزير سالم الفارس المشهور صاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة.

قال الراوي: وكان ربيعة في ذلك الزمن من جملة ملوك العربان وأخوه مرة من الأمراء والأعيان وكانت منازلهم في أطراف بلاد الشام وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما بكر وتغلب. وولد لربيعة خمسة أولاد وهم كليب الأسد الكرار وسالم البطل الشهير الملقب بالزير وعدي ودريعان وغيرهم من الشجعان، وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الأسود والسباع اسمها أسما وتلقب بضباع وأما الأمير مرة فله عدة أولاد أبطال أمجاد قد اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس منهم همام وسلطان وجساس وله بنت

جميلة يقال لها الجليلة فاتفق في بعض الأيام أن الأمير مرة دخل على أخيه ربيعة في الخيام وخطب ابنته ضباع لابنه همام وخاطبه بهذا الشعر والنظام:

يقول أمير مرة في قصيد معانيه حكت درر الجواهر
ربيعة يا أخي اسمع كلامي أيا قهار فرسان الجبابر
أريد ضباع بنتك يا ربيعة إلى همام أيا فخر الأكابر
ولما ينتشي ابنك كليبا ويركب يا أخي الخيل الضوامر
وتكبر يا ملك بنتي الجليلة فخذها له وزوج لا تشاور
وهذا يا أخي أقصى مرادي أيا صدام آساد الكواسر
تبدى له ربيعة ثم قال له كلامك يا أخي مثل العنابر
تريد ضباع خذها يا مسمى وزوجها لابنك لا تشاور
ومعها مية خادم يخدموها ومية قعود مع ميتين قواطر
ومعها مية ناقة كالعرائس زياد ومسك فايح دوم عاطر
ومعها مخمل الفاخر وأطلس لغيرك من أزواج أو أصاهر
وهمام ابن مرة مثل ابني ومية جارية غير السرائر
هلم انهض وزوجها بسرعة وافرح فيه واعمل عرس فاخر

فلما فرغ ربيعة من كلامه اعتنقه أخوه مرة وشكره على حسن اهتمامه ثم باشر القوم بأمر العرس وعقدوا عقد الأمير همام على ضباع بنت الكرام كما جرت عادة الملوك العظام فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح وأطعموا كل آت ورائح وما زالوا في سرور وبسط وانشراح ودق طبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة أيام ثم زفوا ضباع على الأمير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها في الأيام القديمة حضر فيها الكثير من سادات العرب وأهل المناصب والرتب ودخل همام على ضباع وحظي بحسنها وجمالها ونالت منه غاية آمالها لأنها كانت تحبه محبة شديدة وتوده مودة أكيدة وسوف يظهر لهما ولدان وهما شيبوب وشيبان وسيأتي حديثهما بعد الآن، هذا ما كان من خبر بني قيس المدعوين بالقيسية ولنتكلم الآن عن حديث اليمنية وما جرى لهما في تلك الأيام من الأمور والأحكام والحروب والأهوال في ميادين القتال فنقول وعلى اللّه الاتكال:

كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان في بلاد اليمن ملك عظيم الشأن صاحب جند وأعوان وأبطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع اليماني ولم يكن له بين الملوك ثاني، وهو أول اليمنية كما كان ربيعة أول القيسية وكان شديد البأس قوي المراس طويل القامة عريض الهامة لا يعرف الحلال من الحرام ولا يحفظ العهد والزمام، وكان يحب النساء الملاح والمزح معهن في المساء والصباح ومن أعماله الغريبة واصطلاحاته العجيبة أنه كان كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك والأمراء التي تخافه وتخشاه وتحسب حسابه وتترضاه وتحمل له الخراج والهدايا وتعلل له الخاطر والمزاج وكان عنده من الأبطال والفرسان ألف ألف عنان وهم عشر كرات مستعدين للحرب والغارت وكان يشرب المدام في الليل والنهار ولا يبالي من الأهوال والأخطار وكان له وزير عاقل خبير اسمه نبهان قد امتاز على الأقران بفعل الخير والإحسان وكان ينهى الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان فاتفق في بعض الأيام أن التقى الملك تبع بنبهان وقال له بحضور الأمراء والأعيان: هل سمعت أيها الوزير العاقل عن ملك كبير عنده رجال كرجالي وأموال كأموالي فقبل الوزير الأرض ووقف في مقام العرض وقال: أعطني الأمان يا ملك الزمان فأحدثك بأخبار ملوك الأمم أصحاب البطش والهمم وما عندهم من الجيوش والعساكر والعدد والذخائر فقال: عليك الأمان من نوائب الزمان، فقال: اعلم أيها الملك المعظم أنه لا يوجد مثلك في هذه الأقطار من الملوك الكبار أصحاب المدن والأمصار ولكن يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة والاقتدار وعددهم كثير وجيشهم غفير يقال لهم بنو قيس وسيدهم اسمه ربيعة ولهم في الحروب والغارات وقائع مهولة مريعة وهم من أولاد مضر الأسد الغضنفر وقد امتلكوا أكثر جهات الأرض في الطول والعرض وهم أعظم منا وأكثر وأشد بأساً. فلما انتهى الوزير من هذا الكلام وسمعه من حضر في ذلك المقام اغتاظ الملك وتأثر وكان عليه أشد من ضرب السيف الأبتر فصاح على الوزير وزعق وقال له بكلام الحنق: هكذا يا تيس تفضل علي بني قيس وما دام الأمر كذلك لا بد أن أقصدهم بفرسان المعارك وأقتل ملكهم ربيعة وأوردهم موارد المهالك وأخرب بلادهم وديارهم وأمحو بالسيف آثارهم وأتملك تلك الديار بالقوة والاقتدار ثم أنشد هذه الأبيات على مسامع الأمراء:

يقول التبع اليمني المسمى بحسان فما للقول زورا

ملكت الأرض غصباً واقتدارا وصرت على ملوك الأرض صورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد شديد البأس جباراً جسورا
وقالوا إنه يدعى ربيعة أمير قد حوى مدناً ودورا
فقصدي اليوم أغزوه بجيشي وأترك أرضه قفراً وبورا
أيا نبهان أجمع لي العساكر فيأتوا فوق خيل كالنسورا
وجهز ألف مركب يا وزيري وهيئهن في وسط البحورا
أسير بهم إلى تلك الأراضي وأمتلك القلاع كذا القصورا
ويغنم عسكري منهم مكاسب أزوجهم بنات كالبدورا
ويبقى الحكم لي براً وبحراً ويصفى خاطري بعد الكدورا

فلما انتهى التبع من شعره ونظامه وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه ندم الذي أعلمه بهذا الخبر ولم يعد يمكنه إلا الامتثال وتجهيز الفرسان والأبطال إلى الحرب والقتال فنزل من الديوان وهو مقهور غضبان وأمر بدق الطبل لاجتماع العساكر وكان هذا الطبل يقال له الرجوع وهو من أعظم الطبول وكانت تدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنع ملوك التبابعة العظام وكانت الناس تسمع صوته من مسافة ثلاثة أيام وكان الملك حسان إذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه وأينما ذهب يتبعه ولم يزل هذا الطبل في ذلك الزمان يتصل من ملك إلى ملك حتى اتصل إلى الأمير حسن سيد بني هلال المشهور بالإحسان والإفضال.

فلما دقت العبيد الطبل وسمعت صوته قواد الفرسان أقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وسألوه عن دق الطبل الرجوع فحدثهم بذلك الإيراد والمسير إلى تلك البلاد للغزو والجهاد ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح ولم تكن إلا مدة قصيرة حتى تجهزت المواكب وتجمعت العساكر من كل جانب وكان من جملتهم عشرة ملوك كبار كل ملك يحكم على ألف بطل مغوار فحضروا أمام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له: نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال الجزيل وبكل خير جميل ثم أمر الوزير بالاستعداد والرحيل على غزو بني قيس وتلك البلاد وطلب منه أن يأتي بالعساكر لتمر من تحت

القصر وهي في السلاح الكامل ليشاهد أحوالها ويرى سلاحها وأثقالها فامتثل الوزير لأمره وفعل كما أمر فانشرح صدر الملك عند رؤية العساكر وهي في السلاح الكامل وعلى استعداد للحرب والقتال فأنشد وقال:

يقول التبع الملك اليماني صفا عيشي وقد طابت فؤادي
عساكر كالأسود أتتني تسري ألوف راكبين على جياد
عليهم كل درع من حديد له زرد كما عين الجواد
وفيهم كل جبار عنيد يقاتل ألف ليث في الطراد
أسير بهم لذاك البر حالا وأقتل كل من يطلب عنادي
وأرجع غانماً في طيب عيش ولا يبقى لتبع من يعادي
ألا يا عسكري قروا وطيبوا على نيل المقاصد والمرادي
ومني ابشروا فيما تريدوا ومهما تطلبوه فبازدياد

فلما فرغ الملك من شعره ونظامه هتف الأمراء وأكابر القواد والجيوش والعساكر والأجناد بالدعاء للملك بالنصر وطول العمر وقد استبشروا بغزو تلك البلاد وأيقنوا بالنجاح وبلوغ المراد ثم نزلت العساكر والأجياد في المراكب مع الأمراء والقواد وكان الملك حسان قبل خروجه من الأوطان قد سلم زمام ملك اليمن إلى الصحصاح بن حسان وهو ملك كبير وفارس شهير وكان الملك حسن يميل إليه ويعتمد عليه وأوصاه أن يجمع له المال في كل عام ويرسله إلى بلاد الشام ثم نزل مع الوزير في مركب كبير وأقلعوا من الأوطان قاصدين بلاد الجيش والسودان وعند وصولهم إلى ذلك الجانب ألقوا المراسي ونزلوا إلى البر بالقوارب ونصبوا الخيام والمضارب وفي الحال أرسل الملك تبع وزيراً اسمه زيد بن عقبة بألف فارس منتخبة ليعلم ابن أخته الرعيني بقدومه إلى تلك الأقطار لأنه كان ملك تلك الديار ويأمره بسرعة الحضور وتقديم الذخائر إلى الجيش فلما علم الرعيني بذلك بادر في الحال بالفرسان والأبطال والمهمات الثقال وسار إلى أن التقى بالملك حسان جالساً في صيوانه ومن حوله الوزراء والأعيان فسلم عليه وقبل يديه فقبله الملك حسان بين عينيه ثم قدم الرعيني الذخائر للعسكر وسأله لماذا أتى إلى تلك الجهات فأعلمه خاله حسان بأنه قاصد غزو بني قيس وتلك الأطلال ثم باتوا تلك الليلة في الخيام وفي الصباح أمر الملك العشرة الملوك العظام أن يتأهبوا

للرحيل إلى بلاد الشام وينقسموا إلى قسمين ويتفرقوا فرقتين فخمسة تسير من اليمين وخمسة من الشمال وأوصاهم كلما أقبلوا على مدينة يملكونها في الحال ويقيمون فيها نائباً من سادات الرجال فأجابوا أمره في الخضوع والامتثال فعند ذلك دقت الطبول وركبت الفرسان ظهور الخيول وارتفع الصياح ولمع السلاح وترتبت الكتائب وسارت المواكب في تلك البراري والسباسب وكانوا كلما وصلوا إلى مدينة امتلكوها بالسيف المهند حتى ملكوا أكثر البلاد وطاعتهم العباد وما زال تبع يتقدم حتى أقبل إلى مدينة الشام وأحاط بها من جميع الجوانب وكان نائب الأمير ربيعة في الشام يدعى يزيد بن علام وكان ربيعة وأخوه مرة في وادي الأنعميين وهو مكان يبعد عن دمشق مسافة يومين فأرسل الملك تبع إلى نائب الأمير ربيعة أحد الوزراء العمد يطلب منه الخضوع لأمره وتسليمه دمشق فلما وصل إليه دخل عليه وأعلمه بالخبر وما قال له تبع فأجاب بالسمع والطاعة ونهض مسرعاً من تلك الساعة وأخذ معه الأموال والذخائر وخرج في جماعة من الأكابر حتى التقى بتبع في الخيام فحياه بالسلام فترحب به غاية الترحيب وأمر له بالجلوس فجلس قريباً منه فقال له تبع: هل أنت حاكم الشام؟ قال: نعم أيها الملك الهمام فسأله عن حكم ربيعة قال: إنه ظالم على قومه وكل الرعاة تشكو من ظلمه وتتمنى له الأذى والضرر والموت الأحمر، والحمد لله رب البرية الذي أعاننا بك حتى نتخلص من نير العبودية وسنخدمك خدمة مرضية ونصير لك من جملة الرعية.

وما كان قوله ذلك لتبع إلا من الخوف والفزع فتبسم تبع من هذا الكلام وقال له: أبشر ببلوغ المرام فإنك ستكون نائبي في بلاد الشام وتحمل لي الخراج في كل عام فقال: سمعاً وطاعة يا ملك الزمان وجوهرة هذا الأوان ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع وقال له: اذهب الآن مع وجوه أهل المدينة وباشر في الضيافات والزينة فإننا سنحضر إلى عندك بعد ثلاثة أيام ونتفرج على الشام ثم نرجع إلى المضارب والخيام فقال: أهلاً وسهلاً الأرض أرضك والبلاد بلادك ثم ودع الملك وسار بمن معه من الأكابر والتجار وأخذ يسعى في أمر الوليمة وقد خامر أهل الشام الخوف والفزع من السبي والهزيمة.

هذا ما جرى لهؤلاء من الأخبار وأما ما كان من ربيعة وبني قيس

الأخيار فإنهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع إلى تلك الديار وافتتاحه المدن والأمصار أخذهم القلق والافتكار وكان قد بلغ ربيعة قول زيد إلى تبع حسان وكيف أنه نسبه إلى الظلم والعدوان مع أنه كان من أعدل ملوك الزمان فأخذه الغضب وزاد به الحنق فجمع أكابر قومه وأخاه مرة ومن يعتمد عليهم من أهل الشجاعة والقوة وأنشد يقول:

غنى ربيعة شعراً من ضمايره ودمع العيون على الوجنات طوفان
يا قومنا اسمعوا وامتثلوا لي أنتم بنو قيس أبطال وشجعان
كنا بخير وكان السعد يخدمنا نقري الضيوف ونكسي كل عريان
جانا من البحر ذا التبع يحاربنا صعب المراس شديد البطش سلطان
معه رجال عوابس ألف ألف بطل من كل درغام قلبه مثل صوان
جاز البلاد ومعه أمير حالفه الكل طاعوه القاصي مع الدان
أتى إلينا وما حسب حساب لنا منا ومن غيرنا هو ليس فزعان
أنا بقيت كبير السن يا عزوتي مالي جلد ألقاه في وسط ميدان
مرة أخوي بهذا الرأي ساعدني همام يا ابن أخي ما كنت كسلان
كيف العمل ننهزم أو نقابله شوروا الصواب إخواني وخلاني

فلما فرغ ربيعة من شعره قالت السادات والفرسان: إن هذا الأمر لا يطاق وعلقم مر المذاق وليس لنا غير الهزيمة فهي أوفر غنيمة وإلا حكم سيفه فينا ولا شانا عن بكرة أبينا، وبعد مداولة طويلة وجلسة مستطيلة استقر رأي الجمهور أن يذهبوا إلى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبوا الأمان ويقدموا له التحف الحسان لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة.

هذا ما كان من أمر بني قيس وأما الملك تبع فإنه في اليوم الثالث ركب في وجوه قومه وتوجه إلى مدينة الشام لأجل الزيارة كما تقدم الكلام فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والإكرام وأجلسه في أعز مقام وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمة فأحسن إليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على أكابر أهل المدينة ثم رتب عليهم الخراج في كل عام وبعد ذلك رجع إلى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد على المرام.

وأما بنو قيس فإنهم جمعوا التحف الحسان والأموال التي يكل عن وصفها اللسان من نقود وجواهر وذخائر ومهمات قماش فاخر حملوها على ماية جمل وركب ربيعة وأخوه مرة في ماية بطل وسار معهما جماعة من الأمراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدوا في قطع البراري والقفار حتى وصلوا إلى تلك الديار وعند وصولهم إلى المضارب نزلوا عن ظهور النجائب واجتمعوا بخزندار الملك تبع واسمه ثعلبة بن الأبشع فقدموا له تلك التحف الحسان ليقدمها إلى الملك تبع حسان ويعلمهم بقدومهم إلى الديار فقدمها الخزندار وأعلم الملك بمجيء القوم في ذلك اليوم وأن مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ويحصلوا على أمانه ويكونوا من جملة خدامه وأعوانه فتبسم تبع والتفت إلى وزيره نبهان وقال له:

أين ملوك قيس العظام الذين قلت لي عنهم ما هو كذا وكذا من الكلام وأني لا أصلح أن أكون لهم من جملة الخدام وهم قد حضروا الآن لتقبيل أقدامي ويكونوا من جملة أعواني وخدامي فقال الوزير: وقاك اللَّه من كل أسر وضير وجعل عاقبة هذا الكلام إلى خير فبينما هم في الحديث والكلام إذ دخل على الملك أمراء بني قيس الكرام فقبلوا الأرض بين يديه ووقعوا على رجليه فأخذ تبع ينظر إليهم ويتأمل فيهم فحانت منه التفاتة فنظر الإمام ربيعة واقفاً في باب الصيوان وهو مثل الأسد الغضبان وكان الإمام ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك تبع حسان لأن نفسه ما كانت تطاوعه على الذل والهوان فقال الملك تبع: من هذا الإنسان المعجب بنفسه غاية الإعجاب ولا حاسب لي أدنى حساب؟

فقالوا: هذا الأسد الغشمشم سيد بني قيس الأمير ربيعة المعظم فلما سمع تبع هذا الكلام شخر ونخر وتبدل عيشه بكدر واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر ثم ناداه فحضر وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه فقال تبع:

أأنت سيد بني قيس الكرام؟ فقال: نعم نعم أيها البطل الهمام قال: ولماذا أسأت الأدب واحتقرتني دون أمراء العرب الذين تماثلوا أمامي وقبلوا يدي وأقدامي فتقدم الآن وقبل رجلي يا مهان وإلا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة للأنام فاستعظم ربيعة ذلك الأمر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر لأنه كان أشرفهم حسباً وأعلاهم نسباً ثم قال:

اعلم يا ملك الزمان أني مثلك من ملوك العربان صاحب قدر وشان وما ذللت نفسي لإنسان وهذه بلادي ملك آبائي وأجدادي وأنا ما تعديت عليك ولا أوصلت أذيتي إليك بل أنت شنيت علينا الغارة وامتلكت بلادنا وألحقت بنا الخسارة وذلك بدون سبب فكفى الذي فعلته أيها الملك المهاب وقد بلغت منا مقصدك فلا أنت تقبّل يدي ولا أنا أقبّل يدك.

فلما سمع تبع هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال وقال: يا نذل بني قيس وأذل من التيس إني ما أتيت من بلادي بهذا الجمع المتزايد إلا لأجعل زمام الدنيا في قبضة رجل واحد ثم إنه صاح على الأعوان والخدام بصوت كالرعد في الغمام يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبير ومن معه من بني قيس الطناجير وقيدوهم في الجنازير فامتثلوا أمره في الحال وقيدوا ربيعة وباقي الرجال وبعد أن قيدوه وأوثقوه أمر بشنقه فشنقوه وهكذا انتهت حياته وانقضت أيامه وساعاته وبقي معلقاً ثلاثة أيام حتى جاء نائبه الأمير زيد إلى الشام فغسله وكفنه ثم واراه التراب وجاؤوا بباقي الرجال وأرادوا أن يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الأمير مرة من بين أيدي الفرسان وتقدم إلى عند الملك تبع حسان وقال: الأمان يا ملك الزمان نحن الآن عبيدك وطوع يديك وجميع أمورنا راجعة إليك: فاعف عنا فقد صرت لنا ملكاً ثم أشار يخاطبه بهذا الشعر والنظام:

مقالات لمرة في بيوت صروف الدهر قد جارت علينا
ألا يا أمير تبع يا مسمى أيا ملك الورى في العالمينا
قتلت أخي ربيعة يا مكنى وأشمت العدا والحاسدينا
وتقتلني أنا يا أمير بعده تهد وصولنا طول السنينا
ونحنا يا ملك حكام مثلك على كل القبائل حاكمينا
وقد حاربتنا وحكمت فينا ونحن اليوم في حكمك رضينا
وبعد اليوم صرنا لك رعايا على طول الليالي والسنينا
وندفع دائماً عشر المال حالا فاحكم ما تريد اليوم فينا

قال الراوي: فلما سمع تبع شعره ونظامه عفا عنه وأعطاه الأمان وكذلك صفح عن باقي الأمراء وجعلهم من جملة الرعايا يدفعون له الخراج في كل عام وقال لمرة: يا سيد القوم قد صممت أن أتخذ مدينة الشام كرسي

مملكتي بعد هذا اليوم فسر أنت وأهلك من هذه الديار وتفرقوا في الأقطار وكونوا لأوامري سامعين ولحكمي خاضعين طائعين ثم إنه قسمهم إلى عدة فرق وأقام على كل فرقة ملكاً من سادات بني قيس فجعل الأمير مرة على الفرقة الأولى وأمره أن يسكن مع قومه في نواحي بيروت وبعلبك والبقاع وجعل الأمير عبس على الفرقة الثانية وأمره أن يقيم في بلاد العراق وتلك المنازل والآفاق وكان الملك تبع قد شتت بني قيس بهذه الوسيلة خوفاً من أن يقع منهم في حقه مكيدة أو حيلة. ثم إنه التفت إلى الأمير مرة وباقي السادات وأشار إليهم بهذه الأبيات:

يقول تبع المدعو اليماني أيا مرة لكم مني الأماني
ألا يا قيس روحوا لا تخافوا فقد سدتم على أهل الزمان
ربيعة أنت يا مرة بداله كبير القوم من قاص ودان
وأولاده فأنت موضع أبوهم وأنت أكبرهم فيهم تعاني
ولكن جلق لا تسكنوها وكونوا في أمان مدى الزمان

فلما فرغ تبع من كلامه وشعره ونظامه جابت بنو قيس أمره بالامتثال وتفرقت جموعهم في البراري والتلال وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الأذى إليهم لأنهم كانوا في أرغد عيش وأهناه وفي عز وجاه كلمتهم في الناس مسموعة ورايتهم فوق هام المجد مرفوعة، لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم قلق ولا ضجر إلى أن أصابتهم البلية وحلت بهم الرزية فبكوا على تفريق بعضهم البعض وتشتتهم في أقطار الأرض.

ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير في الأوراق هو ما جرى للأربعة أخوة الذين اشتهروا من قيس بالحمية والنخوة وذلك أنه كان لزوجة الأمير ربيعة المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور أربعة أخوة من الذكور وهم (جوشن وناجد وجود والأمير منجد الأسد الغضنفر) وكانوا من أجود الناس وقد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس فلما رأوا أفعال تبع الشنيعة وكيف أنه قتل صهرهم ربيعة ساءهم ذلك الأمر وتوقد قلبهم بلهيب الجمر لكنهم أخفوا الكمد وأظهروا الصبر والجلد فحملوا بيوتهم وعيالهم وساقوا غنهم وجمالهم وجدوا في قطع البراري والقفار حتى وصلوا إلى بلاد الشام ونزلوا بقرب صيوان تبع حسان فقال لهم: من تكونون من العربان؟ فقال له ناجد: اعلم

أيها السيد الماجد أننا من خيار العرب أصحاب الحسب والنسب وكان الأمير ربيعة متزوجاً بأختنا جميلة وكنا في زمانه في نعم جزيلة والآن قد أمسينا في ذل وهوان ليس لنا قدر ولا شان وقد أتينا إليك وجعلنا اعتمادنا بعد اللّه عليك لعلك ترحمنا وترثي لحالنا وتبلغنا منك غاية آمالنا وتجعلنا لك من جملة الأعوان والعبيد والغلمان فتستقيم أمورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع وبلوغ الوطر.

فأعجبه كلامهم وبلغهم مرادهم وجعلهم من جملة وزرائه وأكابر أمرائه وكان يستشيرهم في أكثر الأوقات ويفضلهم على الرؤساء والسادات وكانوا يترقبون الفرص ليأخذوا بالثأر ويزيلوا العار ولما بلغ تبع الغاية دخل إلى دمشق ونزل بالسراية وطاعته العباد وخضعت له سائر البلاد وشاع ذكره في الأقطار وتحدثت به الملوك الكبار واستمر على هذه الحال ثلاثين سنة تهاديه الأكاسرة وتهابه الملوك القياصرة وقد بنى قصراً مرتفع البنيان مشيد الأركان وجعل أبوابه من الفضة والذهب ورصع حيطانه بالجواهر والدرر فكان من عجائب الزمان لما فيه من التحف الحسان التي تدهش النواظر وتحير العقول والخواطر فاتفق ذات يوم وهو جالس في الديوان وحوله الأكابر والأعيان وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتي اشتهرن بالفضل والأدب والحسن والجمال واللطف والكمال فقال أحد الوزراء: إنه لا يوجد في هذا الزمان بين بنات العربان كاملة في المحاسن والأوصاف البديعة أجمل من ابنة مرة أخي ربيعة وأخذ الوزير يطنب في أوصافها وقال: هي مخطوبة لابن عمها الأمير كليب ومراده أن يتزوج بها في هذه الأيام فهنيئاً لمن كانت زوجته وقرينته وحبيبته.

فلما سمع تبع بذكرها وأنها من أجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب إلى أبيها مرة كتاباً بالحال يأمره أن يرسل له الجليلة بدون إهمال لأن مراده أن يتزوج بها ويكون صهره وبهذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره ثم ختم الكتاب بهذا الشعر والنظام وبه يتهدده بالانتقام إن لم يمتثل إلى هذا الكلام وأشار يقول:

يقول التبع الملك اليماني ملكت الأرض والسبع البحار
ألا يا غادياً مني لمرة على فرس تشابه ريح ساري

أيا مرة فأرسل لي الجليلة بلا إهمال من بين السراري
سمعت بأنها زينة مليحة ويخجل حسنها ضوء النهار
أريد تكون باكر وسط قصري وتتسلط على كل الجواري
وأرسل جزية السبع المواضي خزاين في صناديق كبار
واحضر يا ملك مرة لعندي واخضع لي بذل وانكساري
وادخل عالجليلة وسط قصري واتمتع بها واطفي لناري
واعطيك البقاع إلى بعلبك وارفع لك مقاماً في جواري
وإن لم تمتثل قولي وأمري تراني جئتكم مثل الضواري
وامحي جمعكم في حد سيفي وانهب مالكم وأنال ثاري

ثم أمر وزيره نبهان أن يركب في جماعة من الفرسان ويقصد تلك القبيلة ويسلم الكتاب إلى مرة ويأتيه بالجليلة فامتثل أمره وسار وجد في قطع القفار حتى وصل إلى تلك الديار فرأى القوم في سرور وأفراح وشرب مدام وانشراح لأنهم كانوا مهتمين بزواج كليب بالجليلة بدر التمام فلما سمع مرة بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع فنهض في الحال واستقبله أحسن استقبال ثم أتى به الخيام واحترمه غاية الاحترام وأمر الخدام أن يأتوه بسفرة الطعام وآنية المدام فامتثلوا أمره كما ذكر وبعد أن أكلوا ولذوا وطربوا قال الأمير مرة إلى الوزير:

اعلم أيها الوزير الخطير لقد زاد سرورنا الآن وتزينت بقدومك الأوطان ثم سأله عن سبب زيارته وما هي غاية حضرته فقال: أتيتك بكتاب من تبع ملك الأعراب وبه يطلب ابنتك امرأة له وأنت تعلم بطش هذا الجبار وفعله فقد قال المثل: لا تعاند من إذا قال فعل وإنا واللَّه في غاية الخجل وليس لي إرادة بهذا العمل ولكنني أتيتكم بزي رسول وما على الرسول إلا البلاغ المبين ثم أخرج الكتاب وسلمه إياه ففتحه الأمير مرة وقرأه ولما وقف على حقيقة فحواه انقطعت أمعاؤه وضل عقله وتاه لأنه إن أبى وامتنع بقتله الملك تبع وإن أجابه إلى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه الناس وتزدريه لأنه كان أنعم بزواج ابنته إلى كليب ابن أخيه فانذهل وحار وأخذه القلق والافتكار واشتعل قلبه بلهيب النار فأطرق رأسه إلى الأرض وأخذ يتأمل في عاقبة هذا

العمل فلم يجد سوى الامتثال لأوامر تبع في الحال خوفاً من العواقب وحلول النوائب فالتفت إلى الوزير نبهان وقال له أمام الأمراء والأعيان ومن حضر في ذلك المكان:

لقد أجبت الملك إلى ما طلب وبلغته من ابنتي غاية الأرب لأنه ليس لنا بعد اللَّه سوى أمره ورضاه لأنه الملك الأكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف الأوفر وبعد ثلاثة أيام نكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ونحمله على ظهور الجمال مع باقي الأمتعة والأحمال وتركب الجليلة في هودجها وتسير أمامها الفرسان وتذهب أنت معنا إلى عند الملك تبع حسان فانشرح صدر الوزير بهذا الكلام وأيقن ببلوغ المراد والحصول على الخلع والإنعام فبات تلك الليلة في أمان وهو مسرور فرحان. وأما الأمير مرة فإنه استدعى كليباً سراً وقص الخبر عليه وقال: اعلم يا ثمرة حياتي ومن هو أعز من أولادي أن الضرورة أحوجتني إلى ذلك خوفاً من الوقوع في المهالك وقد أعلمتك بما جرى وتجدد فما رأيك أيها البطل الأمجد؟ فلما سمع كليب هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام وقال: أرجوك أن تمهل الوزير ثلاثة أيام عن المسير حتى أنظر في هذا الأمر العسير.

قال الراوي: وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق يدعى نعمان وكان كثيراً ما يعده بالخير والإحسان فقصده في تلك الليلة وأخبره بما جرى وكان من أمر الملك تبع فقال له: أبشر بالخير يا نور العين وعندي أن تجهز ماية صندوق يكون كل واحد منها طبقتين ففي الطبقة الواحدة تضع فارساً من أبطال المكافحة والمجالدة وفي الثانية جهاز الجليلة وأنت تكون مهرجاً لها أمام سادات القبيلة وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد واعلم لا خفاك أنه عند وصولك إلى هناك تجد سلسلة من النحاس الأصفر معلقة فوق الباب الأكبر وهي مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من أراد الضرر للتبع حسان فتقع عليه بالحال وتذيقه الوبال فخذ لنفسك الحذر واتكل على إلٰه البشر فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع أعاديك فإذا بلغت الإرادة وفزت بالسعادة بنيت مسجدي برسم العبادة وخذ لك هذا السيف الخشب وبه تنال القصد والأرب وأشار يقول:

قال عمران يا ابن ربيعة أتاك الخير وسعدك تم

روح لـقـومـك بـشـرهـم وقـول لـعـمـك وابـن الـعـم
وبـشـر الـمـسـمـى هـمـام أن الـشـمـل الـيـوم يـلـتـم
وقـول الـسـعـد أتـى لـقـيـس واسـتـوفـى ثـارك والـدم
تـأخـذك ثـارك مـن الـتـبـع وتـسـقـيـه الـخـمـر بـكـأس الـسـم
هـذا الـسـيـف تـقـلـد فـيـه وفـي كـفـك يـا أمـيـر يـتـم
والـبـس قـمـوعـة شـمـوطـه تـبـقـى تـضـرب فـيـه بـعـزم
وحـط بـعـيـنـك عـرق الـشـعـب تـبـقـى أحـمـر مـثـل الـدم
وحـط عـروسـك فـي هـودج وقـود بـهـا زمـام وزم
وسـوى عـرضـك قـشـمـرهـا احـذر مـنـه فـي حـقـك دم
وان واحـد قـلـك مـا تـكـون فـاعـجـل واعـمـل حـالـك صـم
والـعـب وارقـص واتـهـرج واحـفـظ مـا يـخـرج مـن الـفـم
عـمـك مـرة والـفـرسـان بـاكـر لـعـنـدي تـلـتـم
وأنـا دبـرت أهـل الـرأي مـن خـالـف قـولـي يـنـدم
وسـيـر لـعـنـده بـالأبـطـال قـبـل مـا يـغـضـب ويـنـسـم
سـلـسـلـة مـعـمـولـة هـنـاك بـعـلـم الـسـحـر مـع الـطـلـسـم
تـبـيـن كـل أعـداء سـاعـة احـذر مـنـهـا لا تـعـدم
طـيـب قـلـبـك لا تـغـتـاظ مـن ذا الـعـايـق لا تـهـتـم
سـألـت الـمـولـى يـنـصـركـم ويـزيـل عـنـكـم كـل الـهـم

فلما فرغ العابد من كلامه وعد كليب ببناء المقام على أحسن نظام ثم رجع على الأثر وأعلم عمه الخبر وقال له: يقتضي الآن أن نبادر بإتمام هذا الشأن وننتخب ماية من الفرسان ونضعهم في الصناديق على ظهور الجمال مع باقي الجهاز والأموال في صفة أمتعة وأحمال على عيون الرجال ويكونون جميعاً بالأسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة في هودجها وهي مزينة بالجواهر ويكون في صحبتها جماعة من السراري يدقون أمامها بالدفوف والمزاهر وأنا أجعل نفسي مهرجاً لها وقائداً لزمام ناقتها وندخل على تبع بهذه الوسيلة فإن تمت عليه الحيلة نلت المرام وأخذت بثأر أبي ومتى قتل الملك تبع يقع في قلب قومه الخوف والفزع فاستصوب الأمير مرة كلام كليب وعلم

أنه سينال المراد فقال: لقد قلت الصواب فافعل ما تريد وكان قد أمهل الوزير ثلاثة أيام حتى تمت هذه الأمور والأحكام وقد أطلع مرة ابنته الجليلة على ما تقدم ذكره وعلى ما قصد كليب فعله. فلما كان يوم الارتحال انتخب كليب ماية من الأبطال وقص على مسامعهم واقعة الحال ثم وضعهم في صناديق الأحمال وحملوهم على ظهور الجمال وكان من جملتهم الأمير جساس وجماعة من عظماء الناس وركبت الجليلة في هودجها وركب أيضاً الوزير والأمير مرة وجماعة من فرسان القبيلة وتقلد كليب بالسيف من تحت الثياب ولبس فروا من جلود الثعالب والذئاب وأرخى لنفسه سوالف طوالاً من أذناب الكدش والبغال وركب على قطعة من قصب وحمل دبوساً من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة أمام القبيلة، فلما رآه الوزير نبهان سأل ما يكون هذا الإنسان فإن زيه عجيب وحاله غريب فقالوا: هذا مهرج الجليلة بنت مرة واسمه قشمر بن غمرة فزاد عجبه وتبسم وهو لم يعلم أنه كليب الأسد الغشمشم، وكانت السراري تدق أمام الجليلة بالمزاهر والدفوف والفرسان تلعب بالرماح والسيوف، وما زالوا يقطعون البراري والآكام مدة ثلاثة أيام حتى اقتربوا من مدينة الشام فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والأعلام وأرسلوا رجلاً من أكابر العمد لكي يعلم تبع بوصولهم إلى البلد فسار على الأثر وأعلم تبع بذلك الخبر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر وكان عنده رمال شاطر فحضر بين يديه فقال له التبع: اضرب لي بتخت الرمل فجلس وضرب الرمل فرأى جميع ما فعلته بنو قيس وقال: الصناديق فيها رجال وأشار يقول:

قال الفتى الرمال صادق ... سقاني الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل مذ كنت طفلاً ... وقبلته يمين مع يسارا
ولا أحد مثلي بالرمال عارف ... ولا غيري يعرف كيف سارا
أخط الرمل بأربع أمهات ... وأولد الصغار مع الكبارا
ألا يا أمير تبع يا ملكنا ... يا أعز الرجال يوم غارا
أقلك عن التقادير والجنايب ... وتحسب أنهم جابوا لك تجارا
جوا يا ملك هم يقتلوك ... ويسيبوا القصر بعدك دشارا
صناديق اللي لك حملوها ... بها أبطال بالعدد أمارا

يـريـدون قـتـلـك يـا مـلـك عـاجـل لـــهـــم ثـــار عـــلـــيـــك وأي ثـــارا

قال الراوي: فلما فرغ من كلامه والتبع يسمع نظامه نادى على العبيد فحضروا ماية عبد وقال لهم: روحوا إلى العمارة وكل صندوق تلاقون فيه رجالاً كسروه فانطلق العبيد إلى العمارة وهم سعد وسعيد وبقية الماية عبد هذا في يده عصا والآخر في يده بلطة والثاني في يده دبوس حديد ولما وصلوا إلى العمارة ابتدأوا بكسر الصناديق فكسروا الأول والثاني إلى العشرة فصاحت بهم الجليلة: يا عبيد السوء لماذا تكسرون صناديقي فقال لها العبيد: إن الرمال قال: إن في هذه الصناديق رجالاً فقالت لهم: اسمعوا حتى افتح لكم إياها لتروا الرجال الذين في الصناديق وتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش فقالت: إن الرمال كذاب وعادوا يردون الجواب (يقع لهم كلام) ثم يرجع الكلام إلى عجوز يقال لها حجلان وكانت رمالة وهي التي علمت الرمال فبان لها جميع ما فعله بنو قيس، وتبين لها أن الصناديق طبقتان في السفلى رجال وفي العليا قماش فافتكرت ساعة من الزمان وضربت ثاني رمل فرأت بني قيس يقتلون التبع لا محالة فقالت: خير لي أخذ الوجه الأبيض عند بني قيس فقامت وأخذت عصاتها بيدها وسارت إلى أن وصلت لعند بني قيس وهم في ارتباك عظيم فقالت لهم: أتيت من عند تبع فقالوا لها: وما قصدك؟ قالت: قصدي كشف الصناديق لأن الرمال قال: إن فيها رجالاً ففتحوا لها أول صندوق والثاني فقالت: إني أرى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك وضربت على الطبقة السفلى فلما رأوها عارفة قالوا لها: استري على ما ستره اللَّه وفتحوا صندوقاً وأعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت لهم: من الآن وصاعداً أساعدكم على قتل تبع ثم إن العجوز طلعت إلى عند تبع والرمال بين يديه وهو يضرب الرمل لأن العبيد أخبروا تبع بما شاهدوه وكذلك العجوز أخبرته كما خبر العبيد فقال تبع: يا عجوز الرمال كذاب قالت: إن الرمال عمي من أكل البصر والثوم فأمر الملك بضرب عنقه وراحت روحه إلى سقر ووادي الأحمر وتقدمت العجوز إلى الملك وأشارت تصف الجليلة وما أعطاها اللَّه من الحسن والجمال.

تـقـول الـعـجـوز الـتـي شـاهـدت مـلـيـحـة تـزيـح الـعـنـا وصـدود
يـا أمـيـر تـبـع يـهـنـيـك فـيـهـا الـسـعـد واقـبـل الـخـيـر لـك والـسـعـود

أتوك بنو قيس أهل السماح وجابوا لك الخيل ثم النقود
وجابوا الجليلة لشخص جليلة بخدين حمر وعينين سود
وقامة طويلة كعود القنا فوق الكتاف ترخي الجعود
بشعر طويل ورمش كحيل بلا جر ميل تصيد الأسود
حواجب كالقوس ترمي الهموم وذات خزام الذهب على النهود
وذات شفاف رقاق نظاف ألفاظها حلوة تزيل النكود
ولها وجه أكيد بليلة القدر ووجنات حمر كما الورود
وجسم رقيق ودقيق وحيق وسنان لولو سبت الورود
لها عنق كعنق الغزال وطوق الذهب يوقد وقود
كتاف كالعاج مثل الزجاج والنقش مواج فوق الزنود
وكف اطرى من الياسمين من حواها ينال السعود
وصدر كاللوح خلقه الإلٰه وقد زين الصدر جوز النهود
وأعطاف وأرداف مثل العجين خلق الإلٰه مهيمن ودود
أما الحجول تزيل العقول حب الطرف يطفي الصدود
أما القلائل سناسل ذهوب من الرأس مكعوب مثل البنود
وملبوسها مليح حرير مقصب مطيب بمسك وزهر وعود
وإن شافها رجل عابد فقيه غدا العقل منه شارد شرود
قد زينوا بني قيس لك عرساً تجلي لأجلك كل هم وكود
للملك حقاً قد احضروا مليحة حلالها يغني عن النقود
فأرسل وراها وخلي المحال واسمع كلامي واجلي الصدود
وادخل على بنت مرة وكن لطيفاً بقطف ثمار النهود

قال الراوي: فلما فرغت العجوز من كلامها فرح الملك وطار عقله من وصف العجوز ونادى على الوزير يأمره أن يحضر الجليلة لتبع بالتبجيل والتكريم وخلفها السراري بموكب عظيم فذهب الوزير وأحضر الجليلة لتبع وكان جالساً على كرسي المملكة وعلى رأسه تاج من الذهب الفاخر مرصعاً بأنواع الجواهر فسلمت عليه فرد السلام وآنسها بالحديث والكلام وقال لها:

أهلاً وسهلاً بالسيدة الكريمة والدرة التي لا يقدر لها قيمة ثم أجلسها بجانبه وترحب بها غاية الترحيب وقد انبهر من فرط جمالها وعذوبة ألفاظها وفصاحة مقالاتها لأنها كانت متصفة بالأدب ومن أجمل نساء العرب فأخذ يسألها عن أهلها وعشيرتها فقالت له بكلام الدلال: اعلم أيها الملك المفضال أن اتصالي بجانبك وتشريفي ببابك جعل لقبيلتنا اسماً كبيراً وذكراً بين الناس شهيراً. كيف لا وأنت ملك هذا الزمان اللَّه يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك فإن كنت تعظم شأني وترفع مرتبتي على أقراني لا تترك أبي وأعمامي وسادات أهلي وأقوامي بعيدين عن فضلك وإحسانك لأنهم قد صاروا من أتباعك وأعوانك فأحب أن تأمر لهم بمكان ينزلون فيه الآن وتأمر بصناديق جهازي فأحب الأحمال أن تحضر إلى هنا في الحال لأنها مملوءة بالتحف والجواهر والقماش النفيس الفاخر فأمر تبع وزيره نبهان أن يذهب في جماعة من الأعيان ويعد قصراً من القصور الجميلة إلى الأمير مرة أبو الجليلة ومن معه من بني عمه وأن تنزل بقية الفرسان بمكان آخر ويقدمون لهم الطعام والشراب وما يلزم من الثياب فأجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعل كما أمره مولاه من تلك الساعة وبعد أن نفذ الوزير الأمر وضع الصناديق داخل القصر التفت الملك تبع إلى مرة وقال له: يا عمي ما بقي من بعدي إلا أنت في مقامي فإن غبت تكون أنت حاكم مكاني ثم إنه قربه إليه وأخذ يترحب بالجليلة ويقول:

يقول تبع اليمني الكبار ألا يا قيس زال الهم عني
ألا يا مرحبا يا أمير مرة أنا منكم وأنتو اليوم مني
ترى لولا الجليلة لي تعاقب وجابت لي الحسب والنسب مني
فما علمتم أننا يمنيا وقيسا من جدين أخوين بظني
بقينا أولاد عم يا مسمى والذي راح راح بلا تواني
فلا تعتب علي بقتل أخيك ما قد صار بالعلم مني

قال الراوي: فلما فرغ تبع من كلامه والحاضرون يسمعون نظامه أخذوا الكأس والطاس وقال للجماعة: حلت البركة فيكم فقعدت بنو مرة تشرب معه المدام وشرب الملك تبع حتى سكر وغنت البنات ورقصت وقال تبع للجليلة: يا سيدة الملاح وكوكب الصباح قد أجرينا المطلوب طبق المرغوب

فهل لك غرض آخر حتى نقضيه ونفعل ما ترغبينه وتشتهي وكان مرادها أن تستدعي كليب إلى عندها وقد سمعت صوته وهو يصيح من جوانب القصر لأنه كان راكباً على فرسه القصب وبيده دبوس من خشب وكان يرقص في البستان وينتقل من مكان إلى مكان فقالت: نعم أيها السيد الماجد بقي لي غرض واحد وهو أن لي نديماً اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر حلو الصفات سريع الحركات يضحك الأحجار بأفعاله ويزيل الهموم بغرائب أعماله وقد أحضرته هذه المرة في خدمتي ليسليني عند حزني وشدتي فإن حسن لديك فأرسل من يحضره إليك ويلعب بين يديك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول أحزانك وأتراحك فضحك من كلامها وأجابها إلى مرامها وأمر أحد الخدام بإدخاله ليرى طرفاً من أفعاله وعند وصوله إلى باب الإيوان نظر السلسلة التي ذكرها العابد نعمان فامتنع عن الدخول وأخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول: ما هذه الحية التي أراها وأنا خايف من شرها فقال: ادخل وما عليك من بأس فما هي إلا سلسلة من نحاس فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع ولما طال المطال التفتت جليلة إلى تبع في الحال وقالت له بكلام الدلال: اعلم أن قشمر هو من أخوف البشر فإن حسن لديك ولم يصعب عليك تأمر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب فرفعوها وأتوا بقشمر إليه فلما صار بين يديه سلم عليه ودعا له بطول العمر والبقاء ودوام العز والارتقاء وأخذ كليب يمزح أمامه ويلعب بسيفه الخشب قدامه وهو في تلك الثياب التي ذكرناها والصفة المضحكة التي وصفناها فكان تارة يبحلق بعينيه ويرقص على الأرض بيديه ورجليه وتارة يقول أين الفرسان والفحول وأين أبو عطبول وأحياناً يرقص ويضحك بدون سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشن فكان من أعجب العجب فاندهش تبع من أعماله واستغرب من أحواله وأقواله فقال للجليلة: واللّه يا كاملة المعاني وشريكة عمري وزماني لقد أصبت في منادمة هذا البهلول الذي يدهش بأفعاله العقول فإنه مع كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام في الجواب فقالت له: صدقت فيما نطقت فإنني لم أر رجلاً مثله بين الأنام في الزلاقة وفصاحة اللسان فإن بقي عندك عشرة أيام يقوم بمنادمتك حق القيام ويدعك مشروح الخاطر على طول الزمان ثم قال قشمر وهو كليب للتبع حسان: إن كنت تريد أن تطرب الآن فائمر سيدتي الجليلة أن تغنيك

بأبيات من الشعر فإن صوتها مليح ولفظها فصيح فقال لها: هل تحسنين الغناء يا سيدة النساء؟ فقالت: إي وأبوك فإن كنت تريد مني أن أغنيك وأطربك وأسليك فائمر قشمر أن يقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد أيقن ببلوغ الأمل وأنشدت الجليلة تقول من فؤاد متبول:

لقد قالت الجليلة بنت مرة شربت الخمر ما بين الاماره
شربنا الخمر في كاسات جوهر فزال العقل وأصبحنا سكاره
بحضرة تبع الملك المسمى بحسان إذا ما شن غاره
وقد أمسيت في قبضة يديه ومن حبه شعل قلبي بناره
ألا يا حارس البستان صنه وإن فرطت فيه الطير طارا

قال الراوي: فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر والنظام زاد بالتبع الوجد والغرام وسكر من غير مدام وقال: مثلك فلتكن النساء فقد زاد سرورنا في هذا المساء وكلما رآه كليب قد زاد في الطرب أخذ يرقص أمامه ويلعب بالسيف الخشب.

فقال له تبع: عيب عليك يا قشمر أن ترقص في هذا السيف أمامي فقالت له الجليلة: بحياتي عليك أن تبلغه الأرب وتعطيه ما طلب فإنك ترى منه العجب فأمره أن يدخل إلى قاعة السلاح فيأخذ السيف ويرجع بالعجل فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة أومأت إليه أن يسرع في العمل وعند دخوله إلى ذلك المخدع وجد سلاح الملك تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وبدأ يفتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال في ساحة الدار ووقفوا له بالانتظار فسل الحسام من غمده وهزه بيده ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه وتذكر أباه فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال في ساحة القتال وهجم عليه فعرفه حينئذٍ الملك تبع فانقطع قلبه من الخوف وأيقن بالهلاك فقال: باللَّه عليك يا سيد الشجعان وفارس الميدان أن تعفو عني وتسمح عما فرط مني فقال: لا بد من قتلك كما قتلت أبي وأكون قد أخذت ثأري وبلغت مرامي فقال تبع: إذا كان لا بد لك من هذا الشأن فامهلني ساعة من الزمان حتى أفيدك عن جميع الأمور والأحوال التي تحدث إلى آخر

الأجيال فقد اتضح لي الحال ووقعت في شرك العقال ثم أنشد وقال:

## (الملحمة الكبرى للتبع حسان)

يقول التبع الملك اليماني لهيب النار تشعل في فؤادي
أمير كليب يا فارس ربيعة ويا حامي النسا يوم الطراد
أريد اليوم أن أعلمك شيئاً لتعرف حال أخبار العباد
فموسى كان في الدنيا نبيا له التوراة أعطت للرشاد
وداود النبي قد جاء بعده يبشر بالزبور أهل الفساد
وعيسى ابن مريم جاء أيضا بإنجيل الخلاص لكي ينادي
نبي لم يكن في الناس مثله لأن اللَّه اختاره يفادي
فكم ميت بكلمته أقامه ومسقوم شفاه من الوساد
وعندي قد تبين بالملاحم بأنك قاتلي دون العباد
وبعده شاعرة تنزل عليكم وتفتن بين قيس في البلاد
وأنت برمح جساس ستطعن وعبدي يذبحك بين الجماد
وتكتب في دماك على البلاطة لمن بعدك لتشتيت الأعادي
ويأتي الزير أبو ليلى المهلهل فيصلي الحرب في كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد بضرب السيف في يوم الجلاد
وتأخذ للجليلة لك قرينة وتحظى بالمسيرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك يسمى الجرو قهار الأعادي
يقتل على يده جساس خاله وأما الزير تقتله الأعادي
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر وتصحبه السعادة في العباد
ويبقى ملكه سبعين عاما وبعد ذلك يطوى في الوهاد
ويظهر له ولد يدعى بدير شديد البأس مرفوع العماد
فيملك في بلاد الشام بعده يجيب الماء من أقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر يهين الضد في يوم الطراد

وبعده يظهر الهادي محمد يقيم الدين ما بين العباد
وأصحابه معه عشرة كوامل كرام الناس سادات البلاد
أبو بكر وسعد مع سعيد وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلي وعامر مع حسين أهل الرشاد
يموت الهاشمي ويصير خليفة على الأحكام بعده بالعبد
أبو بكر يموت بلسعة حية وبعده عمر يقتل بالطراد
علي بالسيف يرديه ابن ملجم يتيما انتشى بين الولادي
ولا يعرف له قبر محقق على وجه الثرى بين العباد
وتختلف الصحابة على الحكم ويحكمها حسين بالبوادي
وبعده بنو أمية سوف تحكم وأولهم معاوية ابن وهاد
ومن بعده بني العباس تحكم سنين كثيرة بين العباد
وبعده الخوارج سوف تظهر يثيرون الفواحش والعناد
يقيموا الشر في كل الأراضي ويملوا الأرض طرا بالفساد
وتظهر من بلاد السرو عصبة فيقصد جيشها غرب البلاد
هلال وعامر من آل قيس يزيدوا حرب حمير مع إياد
حسن أميرهم فخر البرايا وبعده دياب قهار الأعادي
وأبو زيد ابن عمه ليث أروع شديد البأس في يوم الطراد
يطوفون البلاد فيملكوها ويسبون العدا أهل العناد
ويمحون العجم من كل طاغ بأرماح وأسياف حداد
وقبرص والجزائر يملوكها وبدريس الخزاعي والأعادي
شبيب التبعي بالشام يقتل وتترك جثته فوق الجماد
وسركيس بن نازب سوف يقتل بسيف ذياب قهر الأعادي
كذا فرمند في مصر العدية ستخرب دورها بين البلاد
وبعده يظهر الأشطان ظالم خبيث الأصل من قوم شداد
بنو أيوب تظهر بعد منه يقيموا الدين من بعد الفساد
ويظهر ابن عثمان المساعد بأرض الشرق يحكم بالعباد

ملوك الأرض تخشى من لقاهم لأن جيوشهم مثل الجراد
عداد ملوكهم عشرة وعشرة وتسعة بعدهم دون ازدياد
ويظهر تمرلنك من الأعاجم وجنكيز خان من قوم الأعادي
ويظهر بعده ملكاً قويا يثير الحرب في كل البلاد
طويل الجسم مغضوب عليه له اسمين من ظاهر وبادي
يقيم السيف في الأقطار عمدا ويجري الدم في كل البوادي
ويظهر فارساً يدعى قطيعة فعشر سنين يظلم بالعباد
ويظهر بعده الدجال حقا فتتبعه الورى أهل الفساد
يطوف الأرض من شرق وغرب ويفعل معجزات في البلاد
ويظهر ضده المهدي سريعاً ويسطع نوره في كل وادي
ومعه عيسى سمي ابن مريم فيقتله ويملك في العباد
وبعده دابة تظهر سريعاً فتفعل معجزات في البلاد
ونار من عدن تظهر وتسطع فتشكو الناس من هول النكاد
وبعده الشمس تظهر من مغيب وتزداد الخلائق في الفساد
ويأجوج ومأجوج جميعاً تحيط رجالهم كل البلاد
فلا نهر الفرات لهم يجري ولا سيحون والدجلة المداد
وتغشى الأرض موتاً يا كليبا وجوع وقتل في كل البلاد
ونيران تعم الأرض طرا على أعلى الجبال وكل وادي
وبعده يغلق باب المراحم وباب الشر يفتح بارتصاد
فلا يصعد ولا يأتي جواب فذاك الوقت يحترق العباد
ونيران ستظهر من جهنم وينفخ ريح من أقصى البلاد
يموت الخلق فيه ليس يبقى سوى الرحمٰن خلاق العباد
وبعده يظهر الديان حقاً إلٰه العرش ديان العباد
فعندي الجفر قد أخبر مؤكداً بما أخبرتكم دون ازدياد
واسمع يا أمير كليب مني حقائق قصتي وافهم مرادي
وما علمت عن حالي وضعفي أجرني يا ملك واطلق قيادي

واعلم يا أمير أني عتيقك مدى عمري إلى يوم المعاد

فلما فرغ الملك تبع من هذه الملحمة وسمع كليب ما فيها من الأخبار المتقدمة والمتأخرة تعجب غاية العجب وقال: لست أعفو عن قطع رأسك وإخماد أنفاسك لأنك افتريت وظلمت ثم أجابه بهذا القصيد على سبيل التهكم والتهديد:

يقول كليب قاهر الأعادي كلام أشد من ضرب الهناد
أنا قد صرت هذا اليوم حاكم أتاني السعد مع نيل المراد
أيا تبع إلينا جيت عاجل قتلت أبي وخربت البلاد
فما أبقيت قيمة للإمارا وقد ألبستهم ثوب الحداد
هتكت الأرض يا تبع بفعلك وصيرت الأنام إلك أعادي
جعلت رجالنا تشبه نسانا وأهلكت الإمارا في البلاد
فوالله ثم والله ثم والله إلٰه خالق كل البوادي
فلست براجع عن قطع رأسك ولو ملكتني كل البوادي

قال الراوي: فلما فرغ الأمير كليب من كلامه وفهم تبع فحوى قصده ومرامه قال: باللّه عليك أيها السيد المحترم أن تعفو عني وتجعلني من الخدام فقال كليب: لا بد لك من قطع رأسك يا مهان ولكن أسألك كيف قتلت أبي غدراً أو بالميدان فقال تبع: إذا كان لا بد لك من ذلك يا فارس المعارك فأمهلني ساعة حتى أخبرك عن سبب قتل أبيك وأتودع من هذه الدنيا قليلاً ثم إنه أبدى حزناً وعويلاً وأشار يقول من فؤاد متبول وعمر السامعين يطول:

قال الملك تبع حسان ظلمني دهري دون باقي الناس
يا ابن ربيعة يا مخزوم أنت أمير شديد البأس
طويل الباع بيوم نزاع عفيف شجاع ثقيل الرأس
تسألني عن قتل أبيك فكل بناية لها أساس
فلما جيت لأرض الشام أتى للقانا كل الناس
أتاني كل أكابر قيس وكل أمير ليدي باس
ألا أبوك فقد خالف ولم يفعل كباقي الناس

فـراح الـغـيـظ بـوسـط الـقـلـب أمـرت بـشـنـقـه لـلـحـراس
وهـذا بـأمـر الـلَّـه مـكـتـوب فـوق جـبـيـنـه بـأعـلـى الـرأس
وأنـا بـقـيـت بـهـذا الـيـوم وحـيـد فـريـد بـلا إيـنـاس
أريـد الـعـفـو عـمـا جـنـيـت بـحـيـات عـمـك مـع جـسـاس
إنـي كـنـت زعـيـم الـقـوم وحـكـمـي نـافـذ بـيـن الـنـاس
فـلـمـا أتـانـي وعـد الـلَّـه بـطـل الـعـظـم وظـنـي خـاس
دهـتـنـي الـجـلـيـلـة بـالـحـيـلـة وغـابـت عـنـي كـل الـنـاس
وهـذا أمـر الـلَّـه مـحـتـوم وأمـره نـافـذ فـوق الـنـاس

قال الراوي: فلما فرغ تبع من هذا الشعر والنظام قال له كليب: لا بد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك ثم ضربه ضربة بالحسام على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وبدمه جديلاً ولما رأته الجليلة قد مات زادت بها الأفراح واعتنقت ابن عمها وقبلته وقالت: مثلك تكون الفرسان يا ليث الميدان فشكرها كليب وهنأها على سلامتها وزاد في إعزازها وإكرامها.

ثم خرج من المخدع وأعلم الفرسان بقتل الملك وقال لهم: لقد بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد فقالوا: نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ثم وضع رأس الملك على رأس السنان وخرج بالأبطال والفرسان وطافوا بشوارع البلد وضربوا من وجدوه بالمهند وهم يقولون هذا رأس ملككم حسان فقد أعدمناه وقتلناه وأرحنا الناس من شره وبلاه فمن عصى أهلكناه ومن أطاع أبقيناه على قيد الحياة وله منا الأمان على طول الزمان.

قال الراوي: فكان أكثر أهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه لشره فاجتمعت العساكر والأعيان وطلبوا من كليب الأمان وأنهم يكونون له من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان فأجابهم كليب إلى ذلك الطلب ورفع عنهم السيف الأحدب ووعدهم بالجميل والإحسان وسمح لهم بخراج عشر سنوات فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر ثم اجتمعت بنو مرة وأكابر العشائر وأعيان الشام وقواد العساكر وألبسوه تاجاً مرصعاً

بالجوهر ثم أجلسوه على كرسي المملكة وجلس بقربه وزير الميمنة وهو نبهان وزير التبع حسان ووقفت أمامه الحجاب والأمراء والنواب فحكم بين الناس بالجود والكرم ومنصفاً المظلوم ممن ظلم وفي الليلة الثانية اجتمعت سادات القبيلة وزفوا إليه ابنة عمه الجليلة وقد كنا ذكرنا في أول السيرة أوصاف هذه السيدة الخطيرة وما حوت من الحسن والجمال والفضل والكمال فتعانقا عناق الأحباب وزال عنهما الغم والاكتئاب وباتا في حظ وانشراح إلى وقت الصباح وفي اليوم الثالث وردت إليه المدائح والتهاني واشتهر ذكره في البلدان وهابته ملوك الزمان.

وكانت الجليلة قد طلبت من كليب أن يبني لها قصراً من أجمل القصور ينشئ فيه بستاناً يحوي جميع أنواع الزهور فأجابها لذلك ووعدها ببناء قصر لا مثيل له في جميع الممالك، ثم نزل إلى الديوان وجمع الوزراء والأعيان وأعلمهم بذلك الشأن فقال له الوزير نبهان: اعلم يا ملك الزمان أنه لا يوجد في هذه الأيام من يقدر أن يبني لك قصراً طبق المرام إلا المعمر المختص برواق ملك مصر وهو الذي عمر قصر التبع حسان فأرسل كليب واستدعاه إليه فلما حضر سلم عليه فقال له: أريد منك أن تبني لي قصراً من القصور الحسان لا يوجد مثله في سائر المدن والبلدان ويكون جنينة جميلة المنظر تحتوي على جميع الأشجار والخضر فإن أتقنت الصنعة طبق المطلوب نلت المقصود والمطلوب فأجابه بالسمع والطاعة وباشر في بناء القصر من تلك الساعة.

قال الراوي: ولما اشتهر قتل تبع باليمن اتصل الخبر إلى صنعاء وعدن فهاجت الرجال وكثر القيل والقال وكان للملك تبع ابن عم من الأمراء المشاهير يقال له عمران القصير وكان شديد البأس قوي المراس فلما بلغته تلك الأخبار صمم على غزو بني قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود وركب في مئة ألف مقاتل وجد في قطع المراحل قاصداً بلاد الشام بكل سرعة واهتمام ولما بلغ كليب هذه الأخبار استعد للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسان والأبطال ولما التقى الجيشان أمر كليب أن تتقدم الفوارس إلى ساحة الميدان وأخذ ينشطهم في الكلام على قتال الأخصام فهاجت الشجعان وتبادرت الأقران في الضرب والطعان وكان الأمير

كليب في أول العسكر كأنه الأسد الغضنفر أو الليث وعلى رأسه البيارق والسناجق ثم التقت الرجال بالرجال واشتعلت بين الفريقين نيران الحرب والقتال وعظمت الأهوال فللّه در الأمير كليب بطل الأبطال وما فعل ذلك اليوم من الفعال فإنه هجم هجوم الأسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب أقوى من الحجر الجلمود وبادر فرسان الكفاح وخطفوا المهج والأرواح وما زال الدم يبذل والرجال تقتل ونار الحرب تشعل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقت العساكر عن بعضها وباتوا في تلك الأرض وعند الصباح رجعوا إلى الحرب والكفاح فبرز الأمير عمران إلى ساحة الميدان وصال وجال وطلب مبارزة الأبطال فأراد كليب أن يبرز إليه فمنعه حجابه وقالوا: أيها الملك إن فينا أبطالاً وفرساناً تستطيع أن تحاربه فبرز إليه فارس من الصناديد يقال له ميمون بن رشيد فالتقاه الأمير عمران بقلب أقوى من الصوان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى استظفر عمران وطعن ميمون بالرمح فوقع قتيلاً وفي دمه جديل فأخذ سلبه وحصانه ثم قوم سنانه وتقدم إلى معركة الحرب وقال أين فرسان الطعن والضرب اليوم تبان الفرسان وتعرف اليمينية والقيسية فبرز إليه آخر فأذاقه الموت الأحمر وما زالت تبرز إليه الرجال وهو يجند لها على بساط الرمال حتى قتل سبعة من الأبطال وكانوا من أكابر السادات الذين اشتهروا بالحروب والغارات.

واستمر القتال على هذا المنوال مدة تسعة أيام وهم في براز واقتحام وفي اليوم العاشر برز الأمير كليب لقتال عمران ولما صار في الميدان تقنطر على ظهر الحصان فأدركه ابن همام وجاء به إلى الخيام فعند ذلك نزل إلى عمران الأمير جساس وصدمه بقوة قلب وشدة بأس غير أنه لم ينجح في قتاله ورجع في المساء عن حربه ونزاله فوقعت هيبة الأمير عمران في قلوب الفرسان فاستعظم كليب ذلك الأمر واشتعل قلبه بالجمر وقال: ما لزيد إلا عمرو فإذا كان الصباح بارزته في معركة الكفاح لأنه طغى وتجبر وقتل منا كل أسد غضنفر وبات تلك الليلة وهو في غم شديد وقلب ما عليه من مزيد فما أقبل الصباح حتى ركب الحصان وبرز لساحة الميدان لقتال عمران الذي برز في ذلك اليوم وهو ينادي أين الأبطال أين الصناديد تبرز على كليب المحتال الذي قتل تبع بالغدر والاحتيال فما أتم كلامه حتى صار الأمير كليب قدامه وصدمه صدمة منكرة أشد من صدمات عنترة. فقال له عمران: من تكون

الفرسان؟ فقال: اعلم أيها التيس أنني ملك بني قيس سترى ضرباً يذهل أبصار الفرسان الصناديد فقال: أنت يا مسخرة النسوان وأحقر من كل ذليل مهان فلو كنت من الفرسان لما غدرت بتبع بالحيلة مع ابنة عمك.

فقال كليب: أما علمت يا قرنان أن الرجال عند أغراضها نسوان وأني ما قتلت تبع إلا لغدره وقلة حياه وكثرة شره فإنه قتل والدي وهذا الذي سبب ذلك واليوم سألحقك به وأسقيك كأس المهالك.

فلما سمع عمران من كليب هذا الكلام اشتد بينهما الخصام فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهما أسدان درغامان فأحاقت إليهما الأبصار من اليمين واليسار واستمرا على هذا الحال إلى قرب الزوال فتعجب عمران من ثبات كليب أمامه لأنه كان يظن أنه لا يوجد في الدنيا من يقدر أن يقف أمامه فعند ذلك قاربه وفاجأه وطعنه بالرمح قاصداً هلاكه وفناه فخلى كليب عن الطعنة فراحت خايبة بعدما كانت صايبة ثم هجم كليب وقال: خذها يا عمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قطعتين وحان عليه غراب البين.

وبعد ذلك حملت على بعضها العساكر وتقاتلت بالسيوف والخناجر فكثر القتل والجراح وجرى الدم وساح وزهقت النفوس والأرواح من ضرب السيوف وطعن الرماح وكان بعد أن قتل الأمير عمران تضعضعت من عساكر اليمن الأركان فولوا الأدبار وأركنوا إلى الهرب والفرار فتبعهم كليب بالعسكر وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف نفر وغنم غنائم عظيمة لها قدر وقيمة وما زال يتابع آثارهم حتى دخل ديارهم فخرجت إليه أكابر الشام بعد أن رتب عليهم خراجاً يدفعونه في كل عام، فدخل القصر بالعز والنصر واجتمع بابنة عمه الجليلة وباقي سادات القبيلة وطاب له الوقت وزال عنه المقت وبعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك القصر المذكور فكان من عجائب الزمان وغرائب الأوان لأنه كان يكثر الإتقان ولا سيما البستان فإنه كان كفردوس الجنان ففرح كليب فيه وأنعم على بانيه وفرشه بالفراش الفاخر الذي يبهر النواظر ويحير العقول والخواطر وجعل أبوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بالجوهر المستحب ثم نقل ابنة عمه الجليلة إليه وكانت قد ولدت له سبع بنات مثل البدور الطالعات فربتهم بالدلال والعز والإقبال فاتفق ذات يوم من الأيام أن

مرة زار ابن أخيه كليب في جماعة من بني الأعمام وبعد أن دار بينهم الكلام قال مرة: يا ابن أخي كثرت عليك الرجال والأغنام لسبب كثرة المواشي والازدحام فمرادي أرحل عنك بأنعامي ورجالي وباقي أموالي ولا شك بأننا في هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الأحوال ونحصل على راحة بال فقال كليب: افعل يا عمي ما تحب وانزل في أي مكان تريد من قرب الديار فإن البلاد بلادنا ونحن ملوك الأقطار، فرحل مرة بقومه ورجاله ونزل في واد كثير النبات يبعد مسافة تسع ساعات تقصده الشعراء وهو يكرمهم ويخلع عليهم ولم تكن إلا سنة من الزمان حتى وكان مرة قد شاخ وكبر في العمر فأقام حساس أميراً على بني بكر فكان يحسن إليهم ويحكم بالإنصاف عليهم فشاع ذكره واشتهر أمره فكانت البلاد طالبين العفو والأمان فأجابهم كليب إلى ذلك الشأن وارتد راجعاً إلى أن صار يحكم على مئة وعشرين ألف عنان.

هذا ما كان من أمر جساس أما كليب الفارس الدعاس فإنه كان في سنوح الفرص يخرج إلى الصيد والقنص وكان على هذه الحال وقد تعود لأنه لم يخف قط سطوة أحد وكان له عدة أخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة وكان من جملتهم المهلهل الملقب بالزير وكان جميل الصورة كأنه البدر وهو صاحب هذه السيرة والوقائع المشهورة وكان في تلك الأيام ابن عشرة أعوام وكان في الشجاعة كسبع الغاب لا يخاف من أحد ولا يهاب فصيح الكلام منعكفاً على شرب المدام وسماع الأصوات والأنغام ينشد الأشعار البديعة ويأتي بالمعاني الرفيعة وكان كليب لحبه إياه لا يعترضه بأمر من الأمور بل يقابله بالفرح والسرور، وكان الزير يتباهى بشجاعته أمام أخيه وأنه لا يوجد بين الفرسان من يضاهيه فقال له كليب في بعض الأيام: أراك يا أخي منشغلاً في الملاهي وشرب المدام فقلبك خال من الهموم والأحزان كأنك لا تسأل عن تقلبات الزمان فمن الواجب أن تحسب حساب العواقب لأن الدهر دولاب سريع الانقلاب إذا أضحكك يوماً أبكاك سنة وليس له على أحد جميل ولا حسنة فقال المهلهل: ما دمت أنت في الوجود فأنا في خير ولا أحسب حساباً للغير ولكن إن جار عليك الزمان وأحاطت بك الحساد والخوان فأنا أرد عنك الأثقال وأجندل أمامك الأبطال أنا أسد الغاب فارس الكتائب والمواكب أنا قهار الأعادي إذا نادى المنادي فتبسم كليب من كلامه وتركه مشتغلاً بشرب مدامه ورجع إلى الديوان وقد راق له الزمان.

قال الراوي: وقد اتفق بعد ذلك بأيام أن أولاد مرة اجتمعوا مع بعضهم في الخيام وضربوا بختاً من الرمل ليروا ما يحل بهم وما يجري عليهم وما يصيبهم فبان لهم أن الأمير جساس لا بد أن يقتل الأمير كليب ويظهر الزير ويأخذ ثأره ويقتل منهم كل أمير وجبار بعد وقائع تستحق الاعتبار فاعتراهم القلق والكدر وأجمع رأيهم على أن يقتلوا الزير قبل أن يكبر وكان من جملتهم الأمير سلطان بن مرة فأنشدهم يقول:

على ما قال سلطان بن مرة ... مبيد الضد في يوم النزال
تبين عندنا جساس يقتل ... كليب بن ربيعة ولا يبالي
ويأتي الزير بعده يا أمارة ... يشتت شملنا بين الجبال
ويمحي ذكرنا من كل أرض ... ويفنينا ويسبي العيال
هلموا نقتله ونبيد اسمه ... ونسلم من تصاريف الليالي
فيلزم أن نروح إلى الجليلة ... ونعلمها على ما قد بدا لي
فهذه أختنا ليست غريبة ... فتسعفنا على نيل الآمال
جليلة عارفة في كل فن ... وتعرف بالزيارج والرمال
فقوموا كلنا نذهب إليها ... ونقضي شغلنا قبل الوبال

فلما انتهى سلطان من هذا الشعر والنظام وسمعه الأمير جساس ومن حضر من أبناء مرة الكرام استحسنه جميع القوم وركبوا ذلك اليوم وخرجوا من القبيلة قاصدين أختهم الجليلة وكانوا ثلاثة وأربعين ولداً ذكراً كل منهم أسد غضنفر ولما وصلوا إليها وسلموا عليها فتلقتهم بالترحاب والإكرام وأقاموا عندها ثلاثة أيام ثم قالوا لها عن فرد لسان قد ظهر لنا في الرمل بأنه سوف يظهر للزير شأن وأي شأن فيقهر الأبطال والشجعان وتهابه ملوك الزمان ويعاملنا بالجور والسوء وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب فاتفقنا على قتله قبل أن يكبر وأتينا لنعلمك الخبر فما رأيك في هذا الأمر المنكر؟ فقالت: إذا قتلتموه فينكشف الأمر ويأخذ كليب بثأره منكم فيزداد الشر والأحسن أن أجعل كليب يرميه في المهالك ثم أنشدت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... أخوه كليب خلفه مثل غول
تريدوا قتل أبو ليلى المهلهل ... تعالوا أخوتي اصغوا لقولي

وست وأربعون بنو أبيه يجوكم راكبين على الخيول
وتركب خلفهم كل الفوارس فوارس تلتقي مثل الفحول
ويبقى كليب يقتله بيد ويجعله طريحاً على السهول

فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها شكروها وأخواتها على حسن اهتمامها فركب أخوتها ظهور خيولهم وراحوا في سبيلهم فصبرت الجليلة إلى وقت العصر حتى حضر كليب إلى القصر وكانت قد شقت جميع ما عليها من الثياب وأظهرت الغم والاكتئاب فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الأحوال لأنه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمة لحسنها وجمالها وغنجها ودلالها ولا سيما ابنة عمه من لحمه ودمه فقال لها: علامك يا جليلة ما لي أراك في هذه الوبيلة فبكت من فؤاد متبول وأجابته بهذه الأبيات تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة كليب أنت قيدوم السرايا
وتحكم في القبائل والعشائر وفي كل المدائن والقرايا
وحكمك نافذ في كل أرض وتخدمك الملوك مع الرعايا
وإني بنت عمك يا مسمى ومتلي ليس يوجد في البرايا
أتاني الزير خيك في غيابك يريد فضيحتي بين الصبايا
قبضت عليه من عنقه فولى وراح بسرعة وسط الخلايا
ألا يا أمير قل لي كيف تعمل فاقتله وارويه المنايا
وإن لم تقتله حالاً فإنني أروح اليوم من وسط الخبايا
وتبقى الناس تشتم في قفانا ونبلى بالدواهي والرزايا
وهذا الأمر لا يصلح لمثلك كريم الأصل عكار المطايا
فاقتله واخلص من بلاه ولا تحمل آثاماً ولا خطايا
فقتل الزير أصوب من حياته لأنه خائن دون البرايا

فلما سمع كليب هذا الشعر والنظام غاب عن صوابه وأرسل أحد الرجال ليأتيه بأخيه الزير في الحال وذهب الرسول واستدعاه فامتنع عن الحضور لأنه كان في ذلك الوقت يشرب الخمر مع جلسائه وهم في فرح وسرور.

قال الراوي: فرجع الرسول على الأثر وحدث الأمير كليب بذلك الخبر

فازداد كدراً على كدر وأرسل الرجال إليه ثانية فما حضر عند ذلك سار كليب إليه وقد عظم الأمر لديه فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثيابه الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وأرسله مع الرعيان ليرعى النوق والجمال ورجع إلى الجليلة وأعلمها بما فعل مع أخيه المهلهل فلما رأت أنها لم تبلغ الأمل زادت غماً وكدراً وأخذت تدبر على هلاكه بحيلة أخرى فقالت ذات يوم إلى كليب: أما تخشى الهتيكة والعار أما في رأسك نخوة وناموس من جهة أخيك المهان المعكوس فقال: ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام؟ قالت: بلغني أن بعض الغلمان الذين يدورون مع الرعيان بأنهم فعلوا معه القبيح وأنت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبر وقد تحدث فيك جميع البشر ثم شرحت له واقعة الحال بهذا الشعر والنظام:

تقول الجليلة يا محفوظ أتاني علم بحال أخوك
وشاع العلم بكل القوم غني الناس مع الصعلوك
وصار الناس بقيل وقال وكل البدو عليك ضحوك
أنت أمير كبير القوم وتيس وحمير قد هابوك
فكيف يكون أخوك الزير وقومك من أجله يخافوك
كيف بقا لك رأس يقوم والرعيان لقد عابوك
فاقتل أخوك في سيفك وإلا قومك قد لاموك
فكل العالم تحكي فيك يقولوا الزير بقي مهتوك
فهذا الأخ ومثله ألف بيوم الضيق فما عانوك
أخاف يقولون كل أهله مثله والعالم يشكوك

فلما وقف كليب على حقيقة الأمر التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب وأخذته الحمية وعصفت في رأسه النخوة الجاهلية فصمم أن يقتل أخاه ويسقيه كأس المنية فقالت الجليلة: لا تقتله بيدك يا أمير لأن كلام الناس كثير فالأوفق أن تأخذه إلى وادي العباس وهو مكان منقطع عن الناس كثير النمور والأسود وتتركه هناك وتعود فتفترسه الوحوش والأسود وتتخلص من كلام العباد فقال: هذا هو الصواب والأمر الذي لا يعاب وصعد ظهر جواده واعتد بآلة حربه وجلاده واستدعى الزير إليه وقال له: مرادي أن أذهب

للصيد والقنص لأزيل ما بقلبي من القصص فسر أمامي فامتثل أمره وجد في قطع البراري والقفار حتى وصلا إلى الوادي المذكور وهو مكان مهجور وما زالا سائرين حتى صارا في وسط ذلك الوادي وإذا بجواد كليب قد شخر ونخر وضرب الأرض وتأخر وإذا بسبع من بطن الوادي قد ظهر فلما رآه الأمير كليب هجم عليه بالجواد ورماه بالرمح فأخطأه فتبعه الأسد فانهزم كليب من أمامه خوفاً من العطب فلما رأى الزير أخاه قد هرب تقدم نحو الأسد بقلب أقوى من الحجر وطعنه بخنجر كان معه فقسمه قسمين وأخرج قلبه وأكله وصاح على أخيه ارجع يا أخي ولا تخف فرجع وهو يتعجب من أفعال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصفا له في قلبه وقال في سره: من يكون له أخ مثل هذا ويفرط فيه وإن عاش هذا الغلام يكون من عجائب الزمان ثم رجع وإياه فلما رأته الجليلة قالت: لماذا ما قتلته فأخبرها كيف أنه قتل الأسد وقال الذي يكون مثله لا يستاهل القتل بل يجب له الإكرام ثم أشار قائلاً:

يقول كليب من صفوة ربيعة ... شديد البأس ذو عزم رجيح
كريم الأصل سلطان متوج ... وفي طريق الكرم مالي شحيح
ألا يا بنت عمي يا جليلة ... ألا يا صاحبة الوجه المليح
نظر اليوم من سالم فعالا ... يشيب لها الطفل الطريح
لقاني السبع من خلفي وزمجر ... فصار الزير من خلفه يصيح
فكر السبع نحو الزير هاجم ... فعاد الزير واقف مستريح
ولما قددنا منه وقارب ... فغار عليه كالسبع الجريح
طعنه الزير بالخنجر فقده ... وألقاه على الغبرا طريح
فلما شفت هذا الفعل منه ... علمت بأنه فارس رجيح
رجعت إليه من فرحي صريعا ... وصحت عليه في قول مليح
مهلهل يا مهلهل يا مهلهل ... فأنت اليوم أولى بالمديح

قال الرواي: فلما فرغ من شعره زاد كدر الجليلة وقالت له وهي تبكي: ما دام الأمر كذلك فإني سأذهب غداً إلى بيت أهلي وأعلم بما ظهر من الزير بحقي فهم يقتلونه لأني لست أأتمنه على نفسي إذا بقيت عندك لأنه لا بد أن يغدر بي وعيونه محمرة علي وأنت بعد كل هذا ليس عندك نخوة ولا ناموس

فقال: اذكري اللَّه يا جليلة ودعينا من هذا فكيف أسمح بقتل أخي وهو من لحمي ودمي ولا سيما أنه شديد البأس ومن أشجع الناس فإذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث في الناس قالت: اقتله على غير هذه الطريقة خذه إلى بير السباع ودليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذٍ تقطع الحبل فيسقط في البير فيموت ولا يعلم به أحد وأشارت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ودمعي فوق وجناتي غزارة
أخوك الزير ما هو كثير عالم يلعب مع وليدات الصغارة
أخوك الزير شوفه مثل ضبع كما المجنون يلعب بالحجارة
رويته ما يشوف الخير دائم كأنه شبه ضبع في مغارة
يا ليت الزير ينقص من حداكم ولا تبقى تظهر له جبارة
ألا يا حيف هذا من ربيعة وتوعدوه ببنات الإمارة
ترى خمسين خليفة من بيك إمارة من إمارة من إمارة
يبقى الزير هو ندل منكم ليته لا يطيب من الحرارة
وقتل الزير أحسن من حياته ولا نهتك ما بين الإمارة
اقتل أهل الردى ولا عاش عمره واهفيه في حسامك مثل نارة
أنت ابن عمي ونور عيني وشوري إليك ما هو خسارة
مقالات الجليلة بنت مرة وناري عالقة من ذي الشرارة

قال الراوي: وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفها بشيء فلما ألحت عليه وافقها على ذلك إكراماً لخاطرها فنهض في ثاني الأيام وركب جواده وأخذ في صحبته الزير ومائة من الفرسان وسار بهم إلى بير صندل السباع وعند وصولهم قال كليب: يا سالم خيولنا عطشت الآن فمرادنا أن نسقيها وأنت تنزل إلى البير فتملأ كم دلو فقال: حباً وكرامة يا أخي فدلوه في حبل وأخذ يملأ الأدلية وهم ينشلون ويسقون حتى ملأوا الأرض الذي على باب البير وجاؤوا بالخيل ليسقوها فتزاحمت على بعضها البعض فسمع الزير وهو بالبير صهيل الخيل فصرخ عليها صوتاً مثل الرعد القاصف حتى ارتجف منه الوديان واضطربت منه قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها فلما رأى كليب ما فعل أخوه سالم تعجب غاية العجب

وندم على ما فعل وفي الحال أخرجه من البير وازدادت محبته عنده ورجع به إلى الديار فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت: بارك اللَّه فيك أهكذا المفارقة؟ فقال: واللَّه يا جليلة من كان يفعل هذا الفعل يحرم قتله ثم حدثها بما جرى وكان، وأشار يقول وعمر السامعين يطول:

جليلة اسمعي يا بنت عمي ... أرى عقلك بهذا اليوم زائل
اقتله ليشفي اليوم قلبك ... وقد ظهر لنا منه فعايل
سباع الغاب من لقاه هابت ... كذاك الخيل صيرها جفايل
ثلاث ألوف يلقاهم بصدره ... من الشجعان فرسان القبائل
تقولي اقتله وارتاح منه ... فقولك جهل ما هو قول عاقل
فإني لا أبيعه بألف مثلك ... ولو مهما جرى منه فعايل
أراكي تطلبي قتله سريعاً ... فقولك عنه ليس له دلائل
فقولك يا جليلة قول باطل ... فحاشا الزير أن يتبع رذائل
أقلي من كلامك ولا تعيدي ... أيا بنت الأماجد والأصايل

فلما فرغ من شعره ونظامه فهمت الجليلة فحوى كلامه تكدرت ولكنها أظهرت السرور وقالت له: إن قصدي امتحانك لأرى حبك له، وأخذت تمازح كليب بكلام النفاق حتى صفا قلبه وراق ثم إنها صبرت عدة أيام وبعد ذلك أظهرت على نفسها أنها مريضة فرقدت في الفراش وقالت لكليب: إن لي إليك حاجة ولا يقدر عليها سوى أخيك الزير فقال: وما حاجتك؟ قالت: أريد مقدار كاسين من حليب السباع لأنه يقوي الأعصاب وأنا في غاية الضعف والعناء وقد وصفته دايتي علاجاً لمرضي وقالت إن هذا الدواء يأتي بولد ذكر. وأنشدت:

مقالات الجليلة بنت مرة ... كليب اسمع لي يا أبا اليمامة
وأنت اليوم ملك البوادي ... يا ليت الحق بك يا أمير داما
وتحكم يا ملك شرقاً وغرباً ... من أرض الروم للكعبة دواما
وتحت يدك الوفا من العساكر ... وكم حاكم وكم فيه مقاما
وكم أبراج من ذهب وفضة ... جواهر تشرق جناح الظلاما
ولا لك طفل تحيي فيه ذكرك ... سوى سبع بنات مثل الحماما

أتـانـي مـنـك سـبـع أتـانـي ولا جـانـي مـنـك ذكـر غـلامـا
وقـالـت دايـتـي لـي يـا جـلـيـلـة مـعـي لـك عـلـم تـبـري الـسـقـامـا

قال الراوي: فلما انتهت الجليلة من شعرها ونظامها صدق مقالها وأرسل في الحال وراء أخيه الزير فدخل وسلم عليه وقبل يديه وقال: أنا عبد مأمور ولا أخالفك بأمر من الأمور فأعلمه كليب بالواقعة وقال: يا أخي أريد منك أن تأخذ هذا الحق وتملأه من حليب لبوة فقال: على الرأس والعين لكن يا أخي أعطني سيفاً أتسلح به خوفاً من هجوم السباع فقال كليب للجليلة أن تعطيه السيف فقالت له: ألا تستحي يا زير أن تطلب سيفاً وأنت في هذه الشجاعة فخجل وأطرق رأسه وسار من وقته وساعته وقد تأكد عنده أنها تريد هلاكه وضرره، وما زال يسير حتى وصل إلى غابة كبيرة كثيرة الأشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصاه.

فبينما هو ينظر من خلف وقدام وإذا بأسد قد ظهر وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر فلما اقترب منه قبض عليه الزير من ذيله وشده بقوة زائدة ولولحه بيده مثل المقلاع وخبط به الأرض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا حتى قتله وأراد أن يحز رأسه وإذا بلبوة أقبلت وخلفها سبعة أشبال فلما رأت ذكرها مات احمرت عيناها فأراد الزير أن يلاعبها قليلاً وقد علم أنها مغتاظة فجعل نفسه أنه خائف منها فركض أمامها فتبعته وكان قد وصل إلى شجرة كبيرة فصعد إليها وبقيت هي تنظر إليه وتهمهم ثم أقبل أشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها فوجد الزير لها ثدياً يملأ الحق فقال: هذا الذي طلبه مني أخي ثم أراد النزول فقال: إن نزلت تفترسني من رجلي ثم رمى نفسه من الشجرة فجاء راكباً عليها فقبض على رقبتها وألقى رجليه على بطنها بقوة وعزم شديد حتى لم يعد لها سبيل أن تتحرك من مكانها ثم سحب السكين وهو يضحك عليها ونحرها كما ينحر الجزار الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع رأس الأسد واللبوة بعد أن ربط أشبالها بالحبال وساقها أمامه كالكلاب.

فلما وصل إلى الحي لاقته فرسان العرب وأصحاب المناصب والرتب فاستعظموا ذلك الأمر واعتراهم العجب وعند وصوله إلى القصر سمعت الجليلة الضجة فمدت رأسها من الشباك فرأت الزير وهو مقبل على تلك

الحالة فالتهب قلبها بنار الغضب لأنها كانت تظن أنه يموت ويهلك ثم دخل الزير على الجليلة وكان كليب جالساً معها ورمى الرؤوس أمامها وقدم الحق لامرأة أخيه وقال: هل تريدين شيئاً آخر حتى أقضيه فقالت: بارك اللَّه فيك يا سبع الرجال فإنك تستحق المدح والثناء وكان كليب لما رأى رؤوس السباع تعجب من شدة بأسه وقال: كيف فعلت وإلى أين وصلت فأشار يقول:

يقول الزير قهار المواكب ... رماني الدهر في كل المصائب
فلا تسمع أخي قول الأعادي ... لأن الضد شوره ليس صائب
يشوروا عليك يا أخي رأي وخيم ... ليسقونك أخي كأس العواطب
فأهل العقل لا تسمع لأنثى ... لأن كلامها لا شك كاذب
فاعلم يا أخي فيما جرى لي ... بهذا اليوم في وادي الثعالب
وجدت السبع وسط الغاب دائر ... كأنه جائع للصيد طالب
فلما شافني حالاً أتاني ... وكشر عن أسنانه والمخالب
فصحت عليه صيحة جاهلية ... فقدم يا أخي هاجم وطالب
حزِزت بخنجري رأسه فأهوى ... على وجه الثرى للأرض قارب
أتتني بعده لبوة مغيرة ... فلما شفتها وليت هارب
رأيت أشبالها سبعة وراها ... فداروا لجهتي من كل جانب
فلما شفتهم جاؤوا لنحوي ... طلعت لشجرة ذات الشعائب
فداروا حولها فرميت نفسي ... فصرت لظهرها بالحال راكب
حززت لرأسها ومليت حقي ... حليباً بعد أن نلت المآرب
ورأس السبع واللبوة قطعته ... علامة للأغارب والأقارب
وسقت أولادها السبعة أمامي ... فلما صرت في وسط المضارب
لاقتني جميع رجال قومي ... وحيتني الأقارب والأجانب
وهذا ما جرى لي في نهاري ... وما قاسيت من هول المصائب

قال الراوي: فلما فرغ سالم الزير من شعره ونظامه وأخوه كليب مع الجليلة يسمعان كلامه فغضبت الجليلة من كلام الزير وكيف أنه لمح بشعره عليها فقالت في سرها: لا بد أن أعمل على قتله وبعد ذهابه قالت لزوجها كليب: كيف يعلم أني ساعية في قتله ولم يكن عارفاً بما فعله معي من قبيح

فواللَّه إن الموت عندي ألذ من الحياة فلا بد ما أشنق نفسي وأستريح من جور أخيك القبيح ثم صارت تبكي وتصيح فقال كليب: اخزي الشيطان ودعينا من هذا الكلام الآن وأخذ يتلطف بخاطرها ويقول لها: كم مرة رميناه بالأخطار وهو يرجع بالغنائم سالماً كاسباً فقالت الجليلة: مرادي أن تسمع مني ما أقوله الآن ولا عدت تسمع مني غير المرة وهو أن تجعل نفسك مريضاً وترقد في الفراش وإذا أتاك أخوك الزير حتى يراك فتقول له: أصابك مرض شديد ووصف لك الأطباء شربة من بير السباع فإذا سمع منك هذا الكلام تأخذه الحمية والغيرة ويذهب في الحال لقضاء حاجتك فإذا راح لا يعود أبداً من كثرة السباع في ذلك المكان والكثرة تغلب الشجاعة فتفترسه في الحال ونكون قد بلغنا الآمال لأنني كلما تذكرت أعماله أريد أن أخنق نفسي والعرض عند الحر غالي ثم أنشدت تقول من فؤاد متبول:

ألا اسمع لشوري ما اقلك ... على علم الصحيح أنا أدلك
أخوك هبيل ما بيسوى مسلة ... لو قلع الجبال وألف تلة
فأرسله غداً إلى بير صندل ... وإن أرسلته لهناك يقتل
ومنه تستريح مدى الدهور ... وتحظى بالمقاصد والحبور

فلما سمع كلامها أجابها إلى مرامها وانقطع عن الديوان ومقابلة الناس وجعل نفسه مريضاً وأقام بالفراش أياماً ولما شاع هذا الخبر علم الزير بذلك فتشوش خاطره لأنه كان يحبه محبة عظيمة فدخل عليه فرآه راقداً في الفراش وهو يئن من قلب حزين فقال: سلامتك يا أخي ثم جلس بقربه وهو يتوجع عليه ويسليه بالكلام فقال له كليب: اعلم أن مرضي شديد وأنا خايف منه وقد وصف لي الأطباء شربة ماء من بير السباع فمتى شربتها شفيت من هذا الداء وليس لي غيرك يا أخي من يأتيني بها فإن كنت تحبني أريد منك الآن يا فارس الفرسان وقاهر العدا في ساحة الميدان أن تذهب إلى ذلك المكان وتأتي بالمطلوب والمقصود من بير السباع.

فقال الزير: أبشر يا أمير ثم نزل من عنده وجاء بقربتين فحزمهما على حمار ثم سار وجد في قطع القفار إلى أن وصل إلى بير السباع وكانت السباع في ذلك الوقت سارحة في البرية سوى سبع واحد كان راقداً على حافة البير وهو واضع يديه على فمه ونائم فقال الزير في سره: هذا نائم وعيب علي أن

أقتله غدراً فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجليه ونزل للبير من الدرج فملأ القرب واتفق أنه عند نزوله إلى البير شهق الحمار فصحا السبع ولما رأى الحمار هجم عليه وضربه بمخلبه فقتله وجعل يأكله فلما خرج الزير من البير وجد السبع قد قتل الحمار وهو يأكله فاغتاظ جداً فوضع القرب على الأرض وقصد نحو السبع بقلب كالحديد وقال: ويلك يا مشؤوم كيف تأكل حماري أما علمت بطشي واقتداري فوحق ذمة العرب لا بد من تحميلك القرب وكان الأسد قد وثب عليه ونهض على رجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على رأسه فدوخته فوقع على الأرض طائشاً فجاء الزير بالحبل ولجمه لجاماً قوياً ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع عليه القرب ورفس الأسد برجله فنهض مثل السكران فقال الزير: يا قليل الأدب الذي يأكل حمير العرب فهو أولى أن يحمل القرب ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكلما عرج عن الطريق يضربه بالعصا على رأسه حتى طاعه قهراً وجبراً فلما اقترب من الديار تذكر ما جرى له مع أخيه والأسد وكيف عاد ظافراً منصوراً فجاش الشعر في خاطره فأنشد يقول صلوا على طه الرسول:

أنا المهلهل عزمي يفلق الحجرا ... والإنس والجن تخشى سطوتي حذرا
كيد النساء تراه يلقى في عدم ... فخيب اللَّه من يسمع كلام مرا
قالوا أخوك تراه اليوم منطرحا ... على الفراش ضعيف الجسم والبصرا
فجئته عاجلاً حتى أسائله ... والعقل في حيرة مما عليه جرى
فقلت له كيف حالك أنت أخبرني ... فقال: يا مهلهل كيف أنت ترى
أريد شربة ماء أطفي بها ظمئي ... من بير صندل أزيل الهم والكدرا
فسرت حالاً لذاك البير في عجل ... فنلت قصدي وعدت اليوم مفتخرا
هذي فعالي وكل الناس ترهبني ... حتى الأسود وأهل البأس والأمرا

قال الراوي: وظل ينشد الأشعار حتى دخل إلى الديار وهو راكب على ظهر الأسد غير مبال بأحد لأنه بلغ المقصود والأرب وفعل فعالاً تعجز عنها فرسان العرب ولما دخل الحي جفلت الخيل والجمال ودهشت النساء والبنات وسمع كليب والجليلة تلك الضجة فأطلا من الشباك فوجدا المهلهل قد أقبل وهو يسوق الأسد بعصاه فبكى كليب لما رآه وقال لابنة عمه الجليلة: هل ينسخي بهذا البطل أن يقتل وقد جاء الأسد وعلى ظهره القرب وهذا من

أعجب العجب فاشتعل قلبها والتهب من شدة الغيظ والغضب وكادت تموت قهراً ثم نزل كليب إليه وقبله بين عينيه وقال: للَّه درك يا فارس الميدان وزينة الشبان وبعد ذلك سأله عما جرى له وكان فأنشد وقال صلوا على المبعوث بالكمال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ودمعي فوق وجناتي عايم
ذهبت اليوم نحو البير قاصد أجيب الماء يا ابن الأكارم
وجدت السبع قرب البير راقد فقلت بخاطري ذا السبع نائم
نزلت البير أملي القرب منه وربي بالذي قد قلت عالم
ملأت القربتين وعدت حالاً لأرجع للقبيلة والمعالم
وجدت السبع قد أكل البهيمة ضربته بالعصا فعاد نايم
وحملت القرب من فوق ظهره وجئت إليك يا فخر الأكارم
أطال اللَّه أيامك وعزك على طول الزمان وأنت دايم

فلما سمع كليب هذا المقال أجابه على شعره:

يقول كليب اسمع يا مهلهل فما لك من مثيل في العوالم
سباع البر خافت من هجومك وولت في الفلا منك هزايم
سألت اللَّه أن يحفظك دوماً وتحظى بالسرور وبالغنايم
فقم البس ثياباً من حرير وافعل ما تريد يا ابن الأكارم
فمهما طلبت مني يا مهلهل أنا أعطيكه واللَّه عالم
أخي ما عاد عندي أعز منك وحق اللَّه خلاق العوالم

فلما فرغ كليب من كلامه أنزل الزير القرب على ظهر الأسد وضربه بالسيف وألقاه قتيلاً ثم قطع رأسه أمام أخيه وقال: اللَّه أكبر فقد أخذنا بثأر الحمار وبلغنا ما نحب ونختار بعون الواحد القهار فأمر كليب الخدام أن يدخلوا الزير إلى الحمام فدخل واغتسل ولبس حلة من أرجوان وذهب إلى أخيه في الديوان فقام له على الأقدام وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه في أعلى مقام فزاد اعتباره عند الأمراء والأكابر واشتهر اسمه عند القبائل والعشائر.

وقال له كليب ذات يوم: اطلب يا أخي ما تريد فإن شئت مدينة أوهبتك إياها أو امرأة جميلة أزوجك بها ومالي بين يديك ولا أبخل بشيء

عليك لأنك اليوم ساعدي وزندي وأنت الحاكم من بعدي فقال: لا أريد سوى سلامتك والذي أريده منك أن تأمر لي بصيوان كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع ويكون عندي جماعة من الخدم يقدمون لي ما أحتاجه من الأكل والخمر لأني أريد أن أنفرد عن الناس وأكون وحدي بعيداً عن النساء وعندما تشتاق إلي تزورني.

فقال كليب: ما هذا العمل فواللَّه ما عاد لنا صبر على فراقك ولا عدت أسمع فيك كلاماً من الأعادي اللئام فأقم عندي في العز والإكرام فقال: يا أخي قد صممت على الارتحال فالعزلة أفضل للرجال الأحرار ولا سيما قد صار لي على السباع ثأر في قتل الحمار ولا بد من قتل جميع الأسود أو يرجع الحمار ويعود.

فضحك كليب من كلامه وأمر له بما طلب وقدم له جواداً من أطيب الخيول وجميع ما يحتاج إليه من السلاح والنصول والمشروب والمأكل وأرسل معه عبدين يخدمانه ثم ودعه وساروا حتى وصلوا بير السباع فنصبوا له الصيوان وأقام في ذلك المكان وهو يأكل الطعام ويشرب المدام وكان في كل يوم يلبس عدته ويركب جواده ويصيد السباع وكان كلما قتل أسداً قال: بثأر الحمار وما زال على تلك الحال حتى أفناهم وبنى من رؤوسهم قصراً.

فلما طال عليه الزمان أخذه القلق والضجر لانفراده عن البشر وكان بينه وبين همام بن مرة محبة عظيمة ووداد فزاره الأمير همام في بعض الأيام ففرح بقدومه عليه وقال: أهلاً وسهلاً يا ابن العم وترحب به غاية الترحيب وقال له: لقد ضاقت نفسي من الوحشة والانفراد فواللَّه ما عدت أدعك تذهب من عندي أبداً وكان همام يصرف أكثر أوقاته عنده فينادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الأشعار في الليل والنهار وما زالا كذلك في بسط وانشراح وطرب وأفراح وشرب المدام وسماع الأنغام مدة ثلاثة أعوام هذا ما كان من حديثهم في تلك الأيام.

# حرب البسوس
# بين بكر وتغلب

قال الراوي: وأعجب ما اتفق وتسطر من الأحاديث التي تروى وتذكر حديث العجوز الشاعرة أخت الملك تبع حسان الذي قتله كليب كما شرحنا قبل وهي المرأة التي ذكرها تبع لكليب في ملحمته بأنها سوف تظهر بعده وتلقي الفتنة في القبائل وبسببها يقتل كليب بن ربيعة وتثير الحرب بين بكر وتغلب وباقي عشائر العرب وكانت هذه العجوز من عجائب الزمان وغرائب الأوان ذات مكر واحتيال وخداع ساحرة وكان لها أربعة أسماء سعاد لأنها في يوم ولادتها وردت إليه أموال السبعة أقاليم، وأمها سمتها تاج بخت، لأنها كانت تأكل جوز الهند كثيراً وكانت مع هذه الأوصاف القبيحة جميلة المنظر، فصيحة اللسان، شديدة البأس ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة فكانت تصارع الطواشية، وتركب الخيل في الميدان وتبارز الأبطال والفرسان، فشاع صيتها في كل مكان وتواردت إليها الخطاب من جميع المدن والبلدان فكانت تقول: لا أتزوج بإنسان إلا بعد أن يقهرني في الميدان فكانت تقهرهم في القتال وتعلم عليهم في ساحة الميدان فاقتصرت عنها الخطاب وتباعدت عنها الطلاب.

وكان قد سمع بخبرها ملك عظيم اسمه سعد اليماني وكان ملك بلاد السرو وابن عم أخيها تبع وبطل أروع وليث صميدع صاحب مدن وبلاد وجيش وفرسان فهام في حبها فركب في جماعة من أبطاله وسار قاصداً ديار ابن عمه تبع ليخطب أخته سعاد. فلما وصل إلى البلاد ترحب به الملك تبع وأضافه ضيافة عظيمة لأنه ملك وأمره نافذ في القبائل ففي اليوم الثالث قال سعد لتبع: اعلم يا ابن عمي بأنني حضرت من بلادي لأخطب أختك سعاد الدرة المصونة والجوهرة المكنونة فلا تردني خائباً فهي ابنة عمي ومن لحمي ودمي وأنا أحق بها من كل أحد.

فقال تبع: إني أرغب بذلك غير أنه لا يخفاك أنها لا تتزوج بأحد كان

إلا من يقهرها في الميدان فقال: إني ما أتيت إلا على هذا الشرط فعند ذلك دخل عليها أخوها وأخبرها بقدوم الأمير سعد ابن عمها وأنه جاء ليتزوجها بعد أن يبارزها فأجابته إلى ذلك المرام وفي ثاني الأيام اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركبت على ظهر جوادها وبرزت إلى الميدان وكان الأمير قد ركب حصانه وبرز إلى الميدان والتقاها بقوة القلب والجنان وأخذا يتقاتلان نحو ساعة من الزمان وكان الأمير سعد صاحب نخوة وحمية ومن أشد فرسان الجاهلية فحاربها حتى أتعبها ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة وتزوجته وأقام في الحفلة سبعة أيام ورجع بها إلى بلاده فأخذت معها جميع ما تملكه من أمتعة وأموال وعبيد وغلمان وأقامت مع زوجها في أرغد عيش وهناء مدة عشر سنين، إلى أن عمي زوجها وفقد البصر فصارت تحكم بداله وأطاعتها العرب فعظم أمرها واشتهر ذكرها وما زالت على تلك الحال وهي في أرغد عيش وأنعم بال، إلى أن قتل كليب أخاها تبع كما سبق الكلام فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر وتنغص عيشها وتمرمر وقالت: لا بد لي من المسير إلى تلك الديار وقتل كليب الغدار فإذا قتلته اطفئ ناري وأكون قد أخذت بثأري فأقامت وكيلاً يحكم بالنيابة عنها وركبت هي وزوجها وبناتها وأخذت معها عبدين وما زالت تقطع البراري والآكام حتى وصلت إلى بلاد الشام فسألت عن حلة بني مرة فأرشدوها إليها فلما صارت هناك قصدت الأمير جساس دون باقي الناس ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الأمراء والأعيان فتقدمت إليه وسلمت عليه ودعت وترجمت وبأفصح لسان تكلمت وقالت: أدام اللَّه أيامك ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك وبلغك أربك ومناك ونصرك على حسادك وأعداك فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسألها عن حالها فقالت: إنني شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادات والأكابر وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك فأتيت إلى دارك لأعيش بجوارك وأكون مشمولة بأنظارك ثم أشارت تقول:

تقول سعاد من قلب موجع ... زمان السوء أبقانا ذلائل
وبعد علانا صرنا كالغرائب ... وبعد الكثر قد صرنا قلائل
وبعد العز قد صرنا أذلا ... وبعد السمن قد صرنا هزايل
فهذا الدهر ما له قط صاحب ... فهذا مستقيم وذاك مائل

وذا يبكي وذا يضحك ويلعب وذا يندب عياله والحلائل
فسبحان الذي قدر علينا بغربتنا وتشتيت الشمائل
فبعد أن كنت في خير ونعمة دعاني الدهر كالطلاب سائل
أدور على المناصب والأمرة وأنزل في القرايا والمنازل
سمعت بذكركم يا آل مرة ثلاث شهور لي عنكم أسائل
أبا جساس يا فخر البرايا ويا كهف اليتامى والأرامل
قصدتك لا تخيب فيك ظني أيا ابن الأماجد والفضائل
فاجبر خاطري ربي يجبرك ويعطيك السعادة والفضائل
فكم أوهبت من مال ونوق وكم فرقت من خيل أصائل
فأنت اليوم بين الناس فرداً ثناه مشاع في كل القبائل
عديم المثل ما بين الأمارا وفيك تفاخرت عربان القبائل
عساك اليوم تنعم لي بمال ولا تصغي إلى واش وقائل
فارجع بالغنائم والعطايا وبالخيل المسومة الصواهل

فلما فرغت العجوز من شعرها ونظامها وفهم جساس فحوى كلامها قال لها: مرحباً الأرض أرضي والديار ديياري وأنت نزيلتي وفي جواري فكل من تعدى عليك قتلته ثم أشار يترحب بها ويقول:

قال جساس بن مرة يا عجوز مرحباً بك بلا بطا
مرحباً بك مرحباً مرحباً عدد ما مشت الركاب بالوطا
في قدومك حلت البركة لنا فابشري بالخير مع كثر العطا
اسرحي ثم امرحي في حينا ما أغيظك لو بدي منك خطا

قال الراوي: فلما فرغ جساس من كلامه دعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء وقالت في سرها: لقد نلت المراد بعون رب العباد وأقامت عنده شهرين وجساس يزيد في إكرامها وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم في محبة وموالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة فما هان عليها ذلك الأمر فأخذت تلقي الفتنة والفساد بين الأمراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال ولما اشتد الأمر اجتمع أكابر الناس عند الأمير جساس وأخذوا يشكون من بني تغلب وسوء معاملتهم وأنهم يتعدون عليهم

في أكثر الأوقات بدون سبب وهذا كله من يوم ما قتل كليب التبع اليماني وامتد ملكه في الأقطار فابتدأ يجور ويظلم ولا يحسب حساب أحد وقومه تفعل كفعله وكان مرادهم بهذا الكلام حتى يحمسوا الأمير جساس ويهيجوه على قتال كليب ولكنه لم يصغ لهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم: إنه من الصواب أن أجتمع أولاً مع ابن عمي كليب وأعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا فإن وجدت كلامه قاسياً يكون هو السبب في تقويتهم وإن أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا وما زالت الفتنة بين الفريقين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبر إلى مسامع كليب وبلغه أن بني مرة هم أصل ذلك الخصام وأنهم كل يوم في جمعيات واستعدادات فضاق صدره وتكدر وأرسل يعلم جساس بذلك الخبر طالباً منه أن يبادر بالحال بقصاص المذنبين وتوقيف حركات المخربين وإخراج العجوز من القبيلة التي كانت سبباً لهذه الورطة الوبيلة فاغتاظ جساس من ذلك وتأثر وتأكد عنده كلام قومه وعلم أن أصل البلاء من كليب فلم يجبه بجواب ولا بخطاب وأخذ جساس من ذلك اليوم يفرق على قومه السلاح ويقويهم بآلات الحرب والكفاح فبلغ بذلك الأمير كليب فحار في أمره وخاف على ملكه وتذكر أخاه الزير فركب في جماعة من الفرسان وقصده إلى بير السباع فوجده جالساً على صفرة المدام مع ابن عمه الأمير همام وهما يتناشدان الأشعار ويتحديان بالأخبار فنهضا له على الأقدام وأجلساه في أعلى مقام وفرح الزير بقدوم أخيه كأنه كان له مدة طويلة غائباً عنه غير عالم بأن مجيئه لم يكن ناتجاً إلا عن سبب ضروري جداً وبعد أن جلس قليلاً قال كليب للزير: اعلم يا أخي أن سبب مجيئي أولاً لأجل المشاهدة وثانياً حتى آخذك إلى القبيلة وأقيمك ملكاً مكاني لأني طعنت في السن ولم يعد لي طاقة على معاطاة الأحكام لا سيما قد تغيرت ووقع بين القبيلتين النزاع والجدال فاشتغل مني القلب والبال فقم معي الآن يا سيد الفرسان فقال الزير: واللّه لقد أشغلت بالي بهذا المقال فأنشد كليب وقال:

أخي سالم اسمع ما أقلك ... ففكرك ديره والذهن ليا
أراك اليوم في زهو ولهو ... ولا تدري ما حل فيا
بنو قيس وقعوا بخلف ... وجساس نوى تركيب عليا
فقوم وشد عزمك يا مهلهل ... لأنك أنت جباراً عتيا
وإلا راحت البلدان مني ... وصرنا معيرة عند البرية

قال الراوي: فلما فرغ كليب من شعره ضحك الزير حتى استلقى على قفاه فقال كليب: ما أضحكك؟ قال: لقلة عقلك قال: أنا قليل العقل؟ قال: لو لم تكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد أن نظرت هذا القصر؟ الذي هو أمامك قال كليب: وما يكون هذا القصر قال المهلهل: هذا قصر قد بنيته من رؤوس السباع الذين قتلتهم بثأر الحمار ومع كل ذلك أنت ملك عظيم وصاحب ولايات وأقاليم فكيف تقول إنك خائف وفزعان وأخوك الزير فارس الفرسان فكن في أمان واطمئنان من نوائب الزمان فإن كنت بثأر الحمار الذي ليس له قدر بنيت قصراً من رؤوس السباع ألا ابن من رؤوس الأعادي مدائن وضياعاً وحصوناً وقلاعاً فاذهب بالسلامة ولا ترتع ثم أجابه على شعره يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل أنا لي في الوغى عزماً قويا
سباع الغاب خافت من قتالي وتخشاني ولم تقدر عليا
فاذهب يا كليب ولا تبالي واحكم بالقبائل بالسوية
فإن خارت بنو بكر وخانت فلا أترك أخي منهم بقية

فلما سمع كليب شعره احتار في أمره وندم على مجيئه ثم كرر عليه السؤال وطلب منه أن يسير معه خوفاً من حدوث أمر من الأمور فقال الزير: سر أنت أولاً سأتبعك فيما بعد فقال: لماذا لا تسير الآن فقال: لا خفاك لما حضرت إلى هذا المكان قتلت جميع السباع ما عدا سبعين أو ثلاثة فمتى قتلتهم أدركتك في الحال فعند ذلك ركب كليب جواده وسلم أمره إلى اللّه وسار إلى أن وصل إلى الديار وهو في قلق وافتكار.

هذا ما كان من أمر كليب ويرجع الكلام إلى سعاد الشاعرة الساحرة الماكرة فإنها لما أثارت الفتنة بين القوم وصار لها عند بني مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول أخذت طاسة من الفضة وملأتها من المسك والزباد والعطر وخفقت الجميع في بعضها البعض وعمدت إلى ناقتها الجربانة وأخذت تطلي أجنابها وتدهنها بذلك الطيب ثم أمرت بعض العبيد أن يأخذها إلى المرعى ويمر فيها بالقرب من صيوان جساس في الصباح والمساء وأوصته إذا سأله أحد عنها وعن سبب رائحتها له يقول: لا أعلم وإنما مولاتي تعلم فأخذ الناقة ومر في ذلك المكان فعبقت رائحة الطيب واستنشق جساس

الرائحة الطيبة فتعجب وكان قد نظر إلى العبد وتلك الناقة فأمر بإحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ولما حضر وإذا رائحته كريهة جداً فسأله عن تلك الرائحة فقال: من الناقة فازداد تعجباً وسأله عن سبب ذلك فقال: لست أعلم يا مولاي وإنما مولاتي سعاد الشاعرة تعلم ذلك فقال جساس: هذا أمر غريب واستدعى العجوز فحضرت ثم سألها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت: لا خفاك أطال اللَّه عمرك وأبقاك أن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خواص غريبة الأحوال فإن بعرها من المسك وبولها من العطر وعرقها من الزباد فتعجب جساس غاية العجب وقال: تبارك اللَّه رب العالمين فلا بد لي من أخذ هذه الناقة وافتخر بها على سائر الملوك ثم قال لها: هل تبيعينني إياها يا حرة العرب وأنا أعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت: واللَّه هذا الحساب الذي كنت أحسبه فإني ما هاجرت من بلادي إلا لأجل هذه الناقة وكلما نظرها أمير أو ملك يطلبها مني وما دام الأمر كذلك فإني سأرحل من عندك ثم بكت من قلب حزين وأنشدت تقول:

تقول سعاد من قلب موجع ... سقاني الدهر كاسات الحمام
ضنى مني الفؤاد وغاب نومي ... عمي بصري وقد زادت سقامي
أنا حرمة ولي يد قصيرة ... ولا لي قيمة بين الأنام
وهذه ناقتي قد شتَّتتني ... عن الأوطان يا ابن الكرام
فكم من سيد جاء يشتريها ... فما نالوا بها نيل المرام
وقد جينا إليكم والتجينا ... وقلنا قد حظينا بالسلام
وأنت تريد أن تأخذها مني ... فعاد رجوعنا أشهى مرام

فلما فرغت من كلامها أخذ جساس يتعطف بخاطرها ويقول لها: إن كلامي معك هو على سبيل المزاح ناقتك مباركة عليك وأنت المعززة عندي فقالت من حيث ذلك: أريد أن تخص ناقتي بما يليق بها فقال: أرسليها إلى المراعي مع نوقي وجمالي فقال: إنها لا تأكل إلا من الرياحين وزهر البساتين فقال: إنه ليس لنا كروم ولا بساتين قالت: وهذه الكروم التي أراها بجانب القبيلة من هو صاحبها؟ قال: هي لابن عمي كليب زوج أختي الجليلة وهمام متزوج أخته ضباع قالت: ما دام أنكم أهل وأقارب وأنت ملك نظيره فلماذا

يكون كليب أعظم منك؟ فقال: إنه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وأطاعته العباد فلما سمعت هذا الكلام قالت: واللَّه إني لقد أخطأت وبئس ما فعلت فإني قد تركت البحر وجئت للساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس فاغتاظ جساس وقال: ما معنى هذا الكلام يا حرة العرب فإنك خرجت عن دائرة الصواب أهذا جزاء المعروف والإحسان؟ فقالت: لا تغضب ولا تغتظ وما قولي هذا إلا من المحبة فكيف يملك ابن عمك وصهرك هذه الأراضي العظيمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمة أهكذا الأهل وأبناء الأعمام أيها الملك الهمام؟

فقال جساس: وذمة العرب وشهر رجب لقد تكلمت بالصواب وأنا من الآن ما عدت أحسب له حساباً لأنه قد اغتر وتمرد ولا عاد يحسب حساب أحد ولا بد من أن أطالبه ليقاسمني الأملاك وإلا ألقيته في الهلاك فروحي أطلقي ناقتك لترعى في أحسن البساتين فراحت العجوز وانشرح صدرها وخرجت من عنده وقالت لعبيدها: خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى في البستان المعروف بحمى كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الأشجار وتأكل الأغصان وإذا اعترضكم أحد فاشتموه وسبوه وإذا اقتضى الأمر اقتلوه ولا تخافوا فقالوا: سمعاً وطاعة ثم أخذوا الناقة وساروا بها إلى ذلك البستان وكان روضة جنان كثير الأشجار والفواكه والأثمار وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن المنتزهات في الدنيا وكان لا يسمح لأحد أن يدخله سوى هو وعياله فقط ولما أخذت العبيد الناقة دخلوا بها إليه بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقلمون الزهور ويكسرون أغصان الشجر وكانت الناقة تأكل العرايش وثمار الكروم وكان كليب أقام حارساً يحرسه اسمه ياقوت فهجم على العبيد بالعصا وقال: اخرجوا يا كلاب من البستان قبل أن يحل بكم الهوان فضربوه وشتموه فهرب من بين أيديهم وجاء إلى كليب وأعلمه بواقعة الحال فاغتاظ غيظاً شديداً وجاء إلى البستان ومعه أربعة غلمان فرأى العبدين أحدهما جالس على سريره الذي يجلس عليه وقت النزهة والآخر داير مع الناقة بين الزهور وهو يسب كليب فركض غلمان كليب على العبدين ليقبضوا عليهما فتركا الناقة وهربا فأحضر الغلمان الناقة لكليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان وكان عبيد العجوز يرون ما يجري على الناقة فلما شاهدوا ذبحها رجعوا وأعلموا مولاتهم بما جرى وكيف أن غلمان كليب

ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان قالت: والآن بلغت مرادي وأخذت بثأري من الأعادي ثم أمرت العبد أن يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها إليها وقامت من وقتها ووضعت التراب على رأسها وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواريها وأخذت جلد الناقة وسارت بها إلى عند الأمير جساس فدخلت عليه وهو في الديوان مع الأكابر والأعيان وصارت تندب وتبكي وألقت الجلد بين يديه فقال: علامك أيها العجوز ما الذي أصابك؟ فحدثته بالقصة وقالت في آخر الكلام: لو كنت أعلم ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتي ترعى في حماه ويذبحها بل إني اعتمدت على كلامك نظراً لعلمي برفعة مقامك بين أهلك وأقوامك حتى جرى ما جرى بسببك.

فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس تلك القضية وعصفت في رأسه نخوة الجاهلية وقال للعجوز: اذهبي بأمان فأنا أعرف شغلي فذهبت إلى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها ثم التفت الأمير جساس إلى من حوله من الأمراء وأكابر الناس وقال: انظروا إلى ما فعله ابن عمنا في حقنا وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل وأنا لا بد لي أن أستعد لقتاله في هذا اليوم فإما أن أقتل أو أبلغ الأمل فقالت له أكابر العشيرة: تمهل يا أمير فإنه لربما لم يعلم أنها ناقة نزيلك ومن الصواب أن ترسل له كتاباً على سبيل العتاب وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه فإن أرسل الثمن واعتذر كان خيراً وإن أبى وامتنع فحينئذٍ تفعل ما تريد.

فاستصوب جساس هذا الرأي وكتب كتاباً إلى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وأرسل الكتاب مع عبده يقظان فأخذ يقظان الكتاب وفي طريقه مر على تلك العجوز وأخبرها بالقصة فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب فعند ذلك فتشت في ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب فقرأته فوجدته كتاباً بسيطاً خالياً من التهديد والوعيد فأضافت إليه كلاماً مغيظاً وهي هذه الأبيات:

أمير كليب يا كلب الأعارب أيا ابن العم لا تكبر علينا
فلازم أذبحك في حد سيفي وأنت شبيه حرمة أجنبية

ثم طوت الكتاب ووضعته في مكانه ونبهت العبد فركب جواده وسار

حتى وصل إلى ديوان الأمير كليب فنزل ودخل عليه وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب فأخذه وقرأه فاغتاظ غيظاً شديداً وأراد أن يقتل العبد ولكنه كان رجلاً عاقلاً موصوفاً بالحلم والحزم فأطرق برأسه إلى الأرض وتفكر قليلاً ثم قال: لعل الأمير جساس كتب هذا الكتاب وهو في حالة السكر غائب عن الصواب فمزق الورقة وأمر بضرب العبد فضرب وقال له: اذهب يا ابن اللئام إلى عند مولاك بسلام وإلا أسقيك كأس الحمام فقام وهو في آخر رمق وركب حصانه وسار إلى عند جساس وقال له عندما قرأ الكتاب: مزقه وأمر بضربي وقد شتمك وسبك وهذا الذي جرى فلما سمع جساس هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام فنهض في الحال ودخل خزانة السلاح ولبس آلة الحرب والكفاح وركب ظهر حصانه وانحدف من صيوانه وصاح على أبطاله وإخوانه وفرسانه فجاؤوا إليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجدال وقال لهم: استعدوا لقتال بني تغلب الأنذال وأخذ ينخيهم بهذا الشعر والنظام:

يقول جساس نار القلب مشتعلة ... طي الضمائر يا قومي لها لهيب
يا قومنا اسمعوا قولي واصغوا ... أقول صحيح ليس لها تكذيب
كليب خلى إلى أحوالنا عبر ... حكم البلاد مشارق ومغيب
وليس يحسب لنا قدر ومنزلة ... الكل عنده غنم وهو الذيب
ناقة نزيلي ذبحها ما اختشى أحداً ... أجرى إلى دمها شبه الأنابيب
أتت عجوز فألقت بجلد ناقتها ... بعدما بكت بدمع سكيب
تنهدت ثم قالت: يا ولد مرة ... ابن عمك كليب عليك يعيب
هكذا كليب يفعل بنزيلك ... ما لك قيمة عنده ولا ترحيب
فقلت لها اصبري يا عجوز علي ... فأنا أجيب لك منه ثمنها أجيب
أرسلت لها اليقظان عبدي ... بكتاب ما فيه أسى ولا تعتيب
شق الكتاب وارمي العبد بضربة ... ومن كثر الضرب ما ظنه يطيب

قال الراوي: فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فما أحد طاوعه على هذا المرام وقالوا له عن فرد لسان: بئس الرأي وهل يجوز لنا يا أمير لأجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب

ونرفع في وجهه السيف بعد أن صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع حسان واستولى على الأقاليم والبلدان وجعل لنا ذكراً عظيماً في قبائل العربان على طول الزمان فإن كان لك عليه دم أو ثأر فدونك وإياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ولما اجتمع بها قال لها: قد جئت إليك لأرضيك بالعطايا خوفاً من ازدياد الشر ووقوع البلايا فاطلبي ثمن ناقتك لأعطيك إياه ولو كان مهما كان قالت: أريد واحداً من ثلاثة أشياء قال: وما هو؟ قالت: إما أن تملأ خرجي بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم أو رأس كليب بالدماء يعوم فقال لها: أما ملؤك خرجك بالنجوم أو الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحي القيوم أما رأس كليب فأبشري به ثم قوم السنان وأطلق العنان وقصد حي بني قيس فقالت العجوز لعبدها سعد: خذ هذه السكين والمنديل الأبيض واتبع جساس من وراءه فإذا رأيته قتل كليب فأسرع اذبحه والطخ هذا المنديل الأبيض من دمه فمتى فعلت ذلك فإني أطلقك لوجه اللَّه تعالى فامتثل أمرها وتبع آثار جساس حتى وصل إلى قصر كليب وسأل عنه فقالت له أخته الجليلة: قد ركب الآن وهو يطيع مهره في وادي الحصا والجندول فقصده حتى التقى به وهو يطيع مهره وكان كليب بدون سلاح ولم يكن معه سوى خيزرانة فقط وكان كليب دائراً ظهره إلى جساس لأنه كان من عادته أنه لا يلتفت في أيام الحرب إلى أقل من مائة فارس فأراد جساس أن يغدره من قفاه فما طاوعته يده على ذلك مهابة ووقاراً فلما وصل سلم عليه فرد عليه السلام فرآه متسربلاً بالسلاح فاستعظم كليب الأمر وقال: علامك يا ابن عمي أراك بالسلاح الكامل قال: مرادي الصيد والقنص لكني لما التقيت بك عرجت إليك لأسألك سؤالاً واحداً وأعاتبك على ما فعلت فهل لأن لك بساتين وكروماً ونحن ما لنا شيء حتى أتت لعندنا عجوز شاعرة مع بعل لها أعمى ورعت ناقتها في بستانك على جاهنا فقتلت الناقة أما لنا عندك قيمة ولا اعتبار بهذا المقدار.

قال الراوي: فضرب كليب كفاً على كف من شدة الأسف وقال: واللَّه يا ابن عمي ما عرفت أنها ناقة نزيلك ثم ذكر له سوء أدب الرعيان وما فعلوا من الضرر في البستان ومع كل ذلك فإني أعوض عليها بأربعمائة ناقة وإذا أرادت أكثر أعطيها ولا يكون ذلك سبباً للنزاع والخصام بيننا فإننا أولاد عم

وأصهار فقال جساس على سبيل الخداع: إني سأرضيها وهو قاصد قتله ثم قال له: مرادي ألعب معك سابقين بالجريد فقال كليب: يا جساس أنت راكب ظهر القميرة وأنا راكب مهر جاهل فقال: أنا أسوق أمامك والمهر يسبق الفرس فلاعبه كليب بالجريدة فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره فقال كليب: قم يا ابن العم فإن كنت لا تريد أن تلعب غير هذه الجريدة فأسرع واضربني بها فينتهي الحال نزل كليب عن ظهر المهر ومشى أمامه أما جساس فإنه قد تألم من هذه الضربة حتى أنه لم يعد يستطيع القيام وإذا بعبد العجوز أقبل إليه وجذبه من يده فأوقفه وقال: واللَّه إنك من أحقر الرجال ثم أعلمه بحاله وكيف أرسلته العجوز خلفه لأجل تلك القضية فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب والرمح في يده وطعنه في ظهره فخرج يلمع من صدره فوقع على الأرض يتخبط في دمه فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم إليه وقبله من لحيته وعارضيه وضمه إلى صدره ووضع رأسه على ركبته وقال: سلامتك يا ابن عمي يا أبا اليمامة فقد حلت بي الندامة فواللَّه إني فعلت ذلك بدون عقل ولا تمييز فسامحني على هذا الارتكاب القبيح فقال كليب من حلاوة الروح: هذا حكم الإلٰه المتعال ما كان أملي منك أن تبادلني بهذه الفعال وتشمت في الأعداء الأنذال وتفرق بيني وبين اليتامى وما بكائي على مال ولا نوال وإنما بكائي على اليتامى ولكن لهم رب لا يغفل ولا ينام وأبكي أيضاً على غدرك فإنك قتلتني بالغدر والعدوان ولست من أقراني في الميدان ولا في ملتقى الفرسان ولكن سيجازيك العادل الديان وسوف ترى ما يحل بك من الهوان ولا تظن بأنه يصفى لك بعد الآن واذهب إلى الخيام وأقرِ اليتامى مني جزيل السلام ولكن اسقني قبل رواحك شربة ماء لأن قلبي احترق من الظمأ ثم قال:

يقول كليب اسمع يا ابن عمي ... أيا جساس قد أهرقت دمي
أيا غدار تطعنني برمح ... ولست أنت في الميدان خصمي
وأشمت الأحاسد والأعادي ... وباتت أبوتي تبكي وأمي
على ناقة تقتل ابن عمك ... أمير كريم من دمك ولحمك
بيوم الضيق كان يزيل همك ... ويردي الضد في يوم النزال

قال الراوي: فلما فرغ كليب من شعره ونظامه فخاف جساس واصفر

لونه وارتعش قلبه وقال: واللَّه يا ابن عمي لا يعرف الإنسان ماذا قدر عليه ثم إنه رفع رأسه على ركبته وأتى له بماء فأسقاه وتركه ثم ركب وخلاه وهو يركض ويلتفت وراه قاصداً أهله وحماه وأما عبد العجوز فلما اقترب منه رآه يجود بنفسه وهو على آخر رمق فتأمل فيه العبد فوجده ذا هيبة ووقار ووجهه يتلألأ بالأنوار فتأخر عنه وخاف منه فنظر إليه كليب ففاق من حلاوة الروح وقال له: من أنت وما وهو قصدك ومرامك فأعلمني بحالك؟ فقال: لا يخفى عليك أنا عبد التبع اليماني فلما قتلته أنت حضرت أخته سعاد العجوز الساحرة إلى هذه البلاد لتأخذ بثأره منك وتطفي لهيب نارها وهي التي ألقت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وأرسلتني لأذبحك وآخذ لها أثراً من دمك فقال كليب: لقد صدقت فقد ذكر لي الملك تبع هذا الكلام ونفذ قوله بالتمام وهذا تقدير رب الأنام فأريد منك يا عبد الخير قبل أن تذبحني تفعل معي هذا الجميل وهو أن تلقيني بالقرب من هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير لأكتب وصيتي إلى أخي سالم الزير وأوصيه بأولادي ومهجة كبدي وبعد ذلك افعل ما تريد فسحبه العبد إلى قرب البلاطة والرمح غارس فيه والدم يقطر من جبينه فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل ويتحسر ثم أخذ بيده عوداً وغطه بالدم وأنشد يقول:

يقول كليب اسمع يا مهلهل ... مذل الخيل قهار الأسود
على ما حال من جساس فيا ... طعني طعنة منها بعود
أيا سالم توصي باليتامى ... صغار وبعدهم وسط المهود
واسمع ما أقلك يا مهلهل ... وصايا عشر افهم المقصود
فأول شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك زينات النهود
وثاني شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك مالاً مع عقود
وثالث شرط أخوي لا تصالح ... ولو أعطوك نوقاً مع كاعود
ورابع شرط أخوي لا تصالح ... واحفظ لي زمامي مع عهود
وخامس شرط أخوي لا تصالح ... وقد زادت نيراني وقود
وسادس شرط أخوي لا تصالح ... فإن صالحت لست أخي أكيد
وسابع شرط أخوي لا تصالح ... واسفك دمهم في وسط بيد
وثامن شرط أخوي لا تصالح ... واحصد جمعهم مثل الحصيد

وتاسع شرط أخوي لا تصالح فإني اليوم في ألم شديد
وعاشر شرط أخوي لا تصالح وإلا قد شكوتك للمجيد

قال الراوي: فلما فرغ كليب من شعره ونظامه بكى العبد عليه ورثى لحاله ثم تنفس الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من حلاوة الروح: أين الأحباب أين الأعوان والحجاب أين جندي ودولتي أين ملكي وصولتي تباً لحكم مصيره للزوال فيا ويل للذين يتجبرون على الإلٰه المتعال ثم قال للعبد: باللَّه عليك أن تمهل علي قليلاً حتى أتودع من دار الدنيا وأكتب لأخي وصية أخرى فقال العبد: اكتب يا مولاي رحمك اللَّه فأخذ كليب العود وكتب يقول:

يقول كليب من سادة ربيعة ودمعي فوق خدي كالقناه
جفاني الدهر خلاني سقيماً فهذا الدهر كم مثلي فناه
خرجت أنا على مهري أسير فليس بيدي أنا سوى العصاه
فإذا ابن مرة جاء خلفي يريد قتلي وإبليس طغاه
ضربته بعصاتي فوق ظهره تقنطر راح من فوق الوطاه
أتى من خلفه عبد غريب سريعاً أركبه ووقف حداه
فاستعد وجاني في حال وسرعة ونار بالحشا زادت لظاه
قلي دير وجهك يا ابن عمي يريد الغدر مني بالقفاه
فاحكم طعنة فيا سريعاً وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يا مهلهل عشر أبيات تفهمها الزكاه
أول بيت أقوله استغفر اللَّه إلٰه العرش لا يعبد سواه
وثاني بيت أقوله الملك للَّه بسط الأرض ورفع السماه
وثالث بيت توصي باليتامى واحفظ العهد وإياك تنساه
ورابع بيت أقول اللَّه أكبر على الدهر لا تنسى أذاه
وخامس بيت جساس غدرني انظر الجرح يعطيك النباه
وسادس بيت قلت الزير خيي شديد البأس قهار العداء
وسابع بيت سالم كون راجل لأخذ الثأر لا تعطي وناه
وثامن بيت بالك لا تخلي لا شيخ كبير ولا فتاه

وتاسع بيت بالك لا تصالح وإن صالحت شكوتك للإلٰه
وعاشر بيت إن خالفت أمري أنا وإياك إلى قاضي القضاه

ولما انتهى من كلامه التفت إلى العبد وقال له: افعل الآن ما تريد فقال: واللَّه يا أمير ما تستحق إلا كل خير ويدي لا تطاوعني على ذبحك فقال: اذبحني لأني في ألم شديد وعن قريب تأتي أخوتي وباقي الرجال والحريم فعند ذلك أخرج العبد السيف وانحنى عليه وذبحه ولوث المنديل بدمه ورجع إلى سيدته وأعلمها بقتل كليب وأراها دمه ففرحت فرحاً شديداً وصبرت إلى الليل ثم حملت وسافرت بمن معها من تلك القبيلة سراً حتى لا يعلم بها أحد وقالت: لقد أخذت الآن ثأري وطفيت لهيب ناري وأما جساس لما رمى كليب وولى هارباً سار حتى وصل إلى قومه وهو في خوف عظيم أصفر اللون متغير الكون فقال له أبوه الأمر مرة: أين كنت قال: كنت في البرية فالتقيت بابن عمي كليب فقتلته فزال همي وغمي فلما سمع مرة هذا الخبر تبدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه كاد أن يخرج روحه من بين جنبيه وقال له: يا عديم الذمام ويا أخبث الأنام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لأجل ناقة حقيرة وصاحبتها سائلة فقيرة؟ فماذا تقول العرب يا غدار إذا سمعت عنك هذه الأخبار؟ فقد جلبت علينا الأذى والضرر وفضحتنا بين البشر وما زال يوبخه بالكلام ويلطمه من خلف وقدام حتى جاءت إليه أخوته وخلصوه من بين يديه وهم يعنفونه ويسبونه ويشتمونه ما عدا الأمير همام فإنه كان عند الزير في تلك الأيام وهما يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهذه الأمور والأحكام ثم التفت مرة إلى أولاده وقال لهم: لقد حلت بنا المصائب من كل جانب فما الذي عاد يخلصنا من الزير ليث الوادي وقهار الأعادي فواللَّه ليقطع آثارنا ويعجل دمارنا ثم إنه بعد هذا الكلام أشار يقول:

يقول أمير مرة من قصيد بأن العار ما يمحوه ماح
جلبت اليوم يا جساس حرباً علينا في المساء وفي الصباح
وقدت النار في بكر وتغلب يعم لهيبها كل النواحي
أيا جساس تقتل ابن عمك كليب البرمكي ليث البطاح
فسوف ترى بما يجري علينا إذا برز المهلهل للكفاح

قال الراوي: فلما فرغ الأمير مرة من هذا النشيد أجابه جساس بهذا القصيد:

فـإن الأمـر زاد عـن الـمـزاح تـأهـب مثـل مـن يـبغـي الـكـفـاحـي
فـإنـي إن جـلـبـت عـلـيـك حـربـاً فـإنـي لـيـث حـرب فـي الـكـفـاح
فكف عن الملام فلست أخشى بيوم الحرب من طعن الرماح
وإني حين تنشهر المعالي أعيد الرمح في أثر الجراح
تعدت تغلب ظلماً علينا بلا ذنب يعد ولا جناح
وما لي همة أبداً وقصد سوى قتل العدى يوم الكفاح

قال الراوي: فلما فرغ جساس من كلامه قال له أبوه: سوف ترى ما يحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل فارس الخيل ثم بكى وضرب كفاً على كف وقال لأولاده: أن الرأي عندي أن نكتف جساس ونرسله إلى الزير وإخوته ليقتلوه بثأر كليب وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتنطفي النار، وتزول الأحزان والأكدار فإن المصيبة عظيمة وعاقبتها وخيمة فقال أولاده: ما هذا الكلام يا أبانا فهل بعد كليب غير جساس يليق أن يكون ملكاً فإن كنت تحسب حساب المهلهل فما هو إلا كالأهبل وليس له أدب إلا أكل الكباب وشرب الشراب فقال مرة: العياذ باللَّه من شر الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم ثم قال لأولاده: إن أخاكم همام له عند الزير مدة من الزمان فنخاف أن يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه.

قال الراوي: وكان لهمام جارية اسمها رباب فاستدعاها مرة إليه وقال لها: اقطعي البقاع وسيري إلى بير السباع واعلمي همام سراً بما جرى وتجدد وقولي له أن يرجع بالحال خوفاً من أن يقتل فسارت الجارية حتى وصلت إلى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما يشربان المدام ويتحدثان بالكلام فلما رآها همام وثب إليها وقال لها: ما دهاك؟ قالت: شر طويل وحزن وعويل ثم أعلمته سراً بواقعة الحال وطلبت منه المسير إلى الأطلال فلما وقف على حقيقة الحال اعتراه الانذهال وغاب عن الصواب وتبدل انشراحه بالحزن والاكتئاب فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج الزير من بين الأطناب كأنه أسد فوجدهما يتكلمان سراً ويوميان إليه فعظم الأمر لديه

فسلّ الحسام وقال: ما هو الخبر يا همام فإني أراكما في قلق واهتمام وأشار يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل أحس النار في قلبي لهيب
فقلبي موجع والجسم ناحل ولا ألقى إلى جسمي طبيب
وشاب الرأس مني والعوارض فإني صرت في حال عجيب
أيا همام ألا يا ابن عمي فمالك خائف واقف رعيب
فمالي أبصر الحرمة تقلك تناديك وأنت لها تجيب
أراكم تكتموا الأسرار عني كأني بينكم رجل غريب
أراكم في حديث وفي وشاوش وبين ذا وذا أمر عجيب
فلا تخلو الأمور من الحوادث أيا همام أعلمني تصيب
وإلا افتحوا لي الباب حتى أروح وبالغنا قلبي يطيب

قال الراوي: فلما فرغ الزير من شعره أجابه همام يقول:

يقول همام اسمع يا مهلهل فدمعي فوق خديا سكيب
وناري بالحشا قد أحرقتني أحس بضامري منها لهيب
أقول وأنت تسمع يا مهلهل بأنك صاحبي نعم الحبيب
ولسنا يا ابن عمي في وشاوش ولا أنت بيننا رجل غريب
أنا وإياك في طرب ولهو ولا تحس حسابات الحسيب
جملنا يا فتى نيب جملكم جرى دمه في نحره سكيب

فلما سمع منه الزير هذا الشعر توقد قلبه بلهيب الجمر وأجابه يقول:

يقول الزير يا همام اسمع أنت ابن عمي ولي نسيب
فما لك علم في قتلة كليب ولا لك في القضية من طليب
فقم اذهب إلى أهلك بسيبي بلا تطويل من قبل المغيب
فتأتي أخوتي وهم يقتلونك ويدعونك على الغبرا كئيب
فما أقدر أحميك منهم وأنت محب أيا نعم الحبيب
فوالله ثم والله ثم والله ثلاث أقسام يحلفها الحسيب
فلولا حبنا مع أكل عيش وكاسات شربناها بطيب

لكنت أمد يدي تحت سيفي وآخذ ثأر أخوي عن قريب

قال الراوي: فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال لهمام: أنت من دون بني مرة صديقي ونديمي وزوج أختي ورفيقي وليس عندك علم بهذا الخبر المنكر فلا تخف ولا تفزع فقال همام: لقد جرى القلم يا ابن العم والذي مضى ما بقي يرجع فإما أن تقتلني عوض أخيك أو تأخذ منا ما يرضيك ونرفع عنا الحرب والقتال وتتركنا نبقى في الأطلال ولقد صعب علي هذا الأمر والتهب قلبي مثل الجمر لما سمعت بهذا الخبر المهول فلا كان جساس المهان قال الزير: وحق من يعرف الغيب وروح أخي وحبيبي كليب إني لا أرفع السيف عنكم حتى أشفي غليلي منكم وأقتلكم عن بكرة أبيكم وأهتك بالنساء والبنات وأجعلكم مثلاً في الكائنات ولو لم تكن زوج أختي وسميري لما أعلمتك بما في ضميري بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال فسر الآن إلى الأطلال ولا تعد تريني وجهك في الحرب والقتال فلما سمع همام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان وأومأ إلى ابنه شيبان الذي كان معهما في ذلك المكان أن يسير معه إلى الأطلال فامتنع عن المسير وقال: سأبقى مع خالي الوزير فسار همام وقد عظم عليه الأمر وهو ينفض غبار الموت عن منكبيه حتى وصل إلى حلته واجتمع بأبيه وأخوته وأخذ يلوم جساس على فعله وكيف تجاسر على كليب وقتله وأعلم قومه بما عزم عليه الزير فخاف الكبير والصغير وأيقنوا بالهلاك والتدمير واستعدوا من يومهم للحرب والقتال وجمعوا آلات الحرب والكفاح.

هذا ما كان من بني مرة وأما الزير صاحب القوة والشجاعة والقدرة فإنه بعد ذهاب همام إلى الديار اشتعل قلبه بلهيب النار واعتراه الاصفرار فصار يلطم على وجهه بيديه وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة واحدة لأنه كان يعد من الجبابرة السبعة وكان يقول: وحق رب العباد لا بد أن أفتك ببني بكر الأوغاد وأقتل الشيوخ والأولاد ولما طال المطال وهو على هذا الحال قال له شيبان بن همام: دع عنك هذا الكلام واشرب المدام فإنك عاجز يا خال عن هذه الفعال فمن أنت من الأبطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتباهى على الأمراء وأكابر الناس كأبي همام وعمي جساس ثم أنشد يقول وعمر السامعين يطول:

أنشد شيبان وقال في بيوت ودمعي من عيني هطال

خالي اسمع ما أقول لك وحط قولي وسط البال
تقول تكيد بني مرة وتقتل منهم كل الأبطال
غداً يا خالي هم يأتوك بخيل كثيرة ونعم رجال
تظهر خيول عليك تجول ودق طبول كما الزلزال
ترج الأرض بطول وعرض تروحوا قتل بضرب صقال
يجي جساس قوي البأس كذا العباس زكي الخال
ويأتي عمر بخيل ضمر وصقر ونمر وأبو جفال
وأخي شيبون بطل مجنون وأبي همام إن جال وصال

فلما انتهى شيبان من كلامه أجابه الزير على شعره ونظامه:

يقول الزير أواه أواه يا ابن أختي عقلي زال
تقولي غداً الفرسان تجيك تخوفني من هالأنذال
تاريك أنت عدو مين كلامك ما خلالي حال
وأنا العربيد بيوم نكيد للروس أكيد بطعن عوال
وبعد كليب لأبيع الروح أشلكم بالرمح شلال شلال
وبعد كليب لأخلي السيف طول العمر بيكم عمال
وأنت يا ابن أختي اليوم فطوري عدت بغير محال
وأبوك أغدي سيفي فيه وأعشي الرمح من الأبطال

فلما فرغ الزير من إنشاده نهض الغلام ليركب على جواده ويلحق بأهله ضربه الزير وبحسامه ألقاه على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً ثم قطع عنقه ووضعه في مخلاة حصانه وألفها في قربوس السرج وتركه فسار الجواد حتى وصل إلى بيت أهله فلما رأته أم الولد وهو في تلك الصفة قالت للجارية: دونك جواد سيدك فتقدمت الجارية وأخذت المخلاة، فوجدت فيها رأس شيبان فاستعظمت ذلك الأمر وأعلمت مولاتها بواقع الحال فطار عقلها لما نظرت رأس ابنها مقطوعاً ضجت بالبكاء والنواح والعويل والصياح فاجتمعت عليها نساء الحي من كل مكان ولما سمع همام الخبر طار من عينيه الشرر فبكى وقال لزوجته ضباع: نظرت ما فعل أخوك. فواللّه لم يبق لي غريم سواه فشقت ثيابها وسارت إلى عند أخيها المهلهل ولامته

على ما فعل وقالت له: أتقتل ابن أختك بثأر أخيك ثم أشارت تقول:

تقول ضباع يا سالي علامك بجاه كليب ما سويت بابني
بثأر كليب تقتل ابن أختك وتحرق مهجتي وتزيد حزني
حزنت على كليب وما جرى له وحزني من صميم القلب مبني

فأجابها الزير بهذه الأبيات:

يقول الزير من قلب حريق بقتل كليب زاد اليوم حزني
ألا يا أخت قللي من بكاك ولا تخشين من أمر يتعبني
فواللَّه ثم واللَّه ثم واللَّه إلٰه العرش مذ أدعو يجبني
فلا بد لي من حرب الأعادي وأقتل كل جبار طلبني

فلما فرغ الزير من كلامه قالت له: للَّه درك يا سالم يا قهار الأسود القشاعم لقد زالت لوعتي الآن وخففت عني الأحزان لما سمعت شعرك يا فارس الفرسان وعرفت ما أنت معول على الحرب والطعان وأخذ الثأر وكشف العار ثم رجعت إلى الديار وهي في قلب وافتكار هذا ما كان من أمرها.

قال الراوي: ولما اشتهر موت كليب ووصل الخبر إلى أبياته وعلمت بذلك جميع أهله فمزقوا الثياب وأكثروا من البكاء والانتحاب فتهتكت الوجوه الملامح ووقع في الحي العويل والصياح وكسرت الفرسان السيوف والرماح وخرجت بنات كليب من الخدور وهن مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الأقدام يقطعن السهول والآكام وقدامهن اليمامة وكان ذلك اليوم مثل يوم القيامة ولما وصلن إليه وجدن الطيور حائمة عليه فوقعن على جثته وقبلن يديه وارتمين حوله ولما قرأن ذلك الشعر الذي كتبه على الصخرة زادت أحزانهن وأخذن يلطمن على وجوههن ثم أقبلت أخوة كليب إلى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والأبطال والفرسان والسادات والأعيان يرثونه بالأشعار وجرت دموعهم كالأنهار وابنته اليمامة علمت أنه لا يوجد من يأخذ بثأرها ويطفي لهيب نارها سوى البطل الأوحد والسيف المهند والضحضاح الشهير الذي ليس له نظير عمها المهلهل الملقب بسالم الزير فسارت إليه هي وأخواتها وتواقعن عليه وقلن: واللَّه يا عماه ما كأنك حزنان بما جرى علينا

وكان من طوارق الزمان بقتل أخيك كليب ملك العصر والأوان ثم ألقت اليمامة نفسها في حجره فضمها إلى صدره وقد حار في أمره ولما فاقت اشتدت عليها الحسرات فأنشدت هذه الأبيات:

مات أبي في طعن القنا غدر به جساس ذا الكلب المشؤوم
وأنت اليوم جالس في صفاك يا مهلهل ضاقت الدنيا علي
يا مهلهل بالعجل انهض وقوم وسقاني البين كاسات السموم

قال الراوي: فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهل الأوجاع والآلام فنهض على الأقدام كأنه سبع الآجام وصار النهار في وجهه مثل الظلام وقال لبنات أخيه: سوف ترون ما أفعله وأجديه ثم اعتد بآلة حربه وجلاده وركب ظهر جواده وسار مع البنات يقطع البراري والفلوات حتى وصل إلى ذلك المكان فوجده مملوءاً بالأبطال والبنات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحون ويندبون فلما رأوا المهلهل قد أقبل فتحوا له طريقاً حتى دخل فوجد أخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه فألقى نفسه عليه وهو يبكي من ملء عينيه ويقول: سلامتك يا أبا اليمامة ويا صاحب الكرامة فقد أحرقت قلبي بفقدك فلا كان من يعيش بعدك ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر فقرأها وقال: وحق الإلٰه المتعال إني لا أصالح إلى الأبد ما دامت روحي في هذا الجسد ثم بكى وتنهد ورثاه بهذا القصيد أمام السادات وأكابر العمد وهي من أجود مراثي العرب وأحسن أشعار أهل الفضل والأدب:

كليب لا خير في الدنيا وما فيها إن أنت خليتها من يبقى واليها
الناحر النوق للضيفان يطعمها والواهب الميئة الحمرا براعيها
أضحت منازل بالخلان قد درست تبكي كليباً نهاراً مع لياليها
كليب أي فتى زين ومكرمة تقود خيلاً إلى خيل تلاقيها
غدرك جساس يا عزي ويا سندي وليس جساس من يحسب تواليها
لا أصلح اللَّه منا من يصالحهم حتى يصالح ذئب المعز راعيها
وتولد البغلة الخضرا بلا ذكر وأنت تحيا من الغبرا تلبيها
وتحلب الشاة من أسنانها لبناً وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

فلما فرغ الزير من هذه المرثاة الغراء وسمعتها السادات والأمراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وما احتوت عليه من الألفاظ الرقيقة والمعاني البليغة الدقيقة وقالوا: واللَّه لقد أجاد الزير وفاق الشعراء والمشاهير بكلام كالدر النضيد ثم اجتمع الأمراء والمقدمون وقالوا للعرب المجتمعين: ما فائدة البكاء والانتحاب وإكرام الميت دفنه في التراب ثم أتوا بكليب إلى الديار ودفنوه بكل احترام ووقار واعتبار ورثوه بنفائس الأشعار وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالذهب والفضة فكانت من العجب في بلاد العرب زخرفوها بالنقش الفاخر وكتبوا أسماء الإلٰه القادر وهي هذه الأسماء التي يتكنى بها رب السماء وقد أثبتناها في هذا الكتاب إفادة للطلاب (أسماء اللَّه الحسنى) اللَّه، الرحمٰن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكيم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواحد، الماجد، الصمد، القادر، المقتدر، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البر، التواب، المنعم، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، الرب، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصادق، الستار.

قال الراوي: وبعد أن تلوا أسماء الإلٰه وسمعتها السادات والرؤساء والعشائر ودفنوا الأمير كليب كما تقدم الكلام ذبح الزير على قبره النوق والأغنام وفرق المال على الأرامل والأيتام ثم جلس في الديوان أكابر الأعيان والأبطال والفرسان وإخوانه الشجعان وقالوا لهم: اعلموا أن جساساً أهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا لأخذ الثأر وكشف العار من بكر الأشرار فلما سمعوا هذا الكلام أجابوه إلى ذلك المرام وقالوا عن فرد لسان: إننا بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك لأن الأمير كليب لا ينتسى ولم تلد مثله النساء

ثم إنهم تحالوا معه وعاهدوه وعلى كرسي المملكة بايعوه وأجلسوه فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة فسارت إلى بيت أبيها مع أهلها وجواريها وكانت حاملة بولد ذكر سوف يأتي عنه الخبر واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الأقسام بأنه لا يشرب المدام ولا يلتذ بطعام حتى يأخذ ثأره بحد الحسام ولا يبالي بالويل ثم أمر الرؤساء والفرسان والقواد بجمع العساكر والأجناد وأن يكونوا على استعداد للحرب فامتثلوا أمره بالحال وتجمعت الفرسان والأبطال حتى امتلأت الروابي والتلال وقد انضمت إليه عدة قبائل وأمدوه بالعساكر والجحافل حتى صار في أربعمائة ألف مقاتل.

قال الراوي: ولما بلغ بني بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وحلول النوائب فجمعوا المواكب والكتائب وسار بهم الأمير مرة إلى وادي الذئاب وهو مكان شهير يبعد ثلاثة أيام عن قبيلة الزير وهناك انضمت إليهم بعض القبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثمائة ألف وأقاموا في ذلك المكان ولما سمع الزير برحيل مرة وأولاده إلى تلك الديار قال: لا بد أن أقتفي الآثار وأفني الكبار والصغار ثم أمر القائد الصغير بسرعة المسير فامتثلوا ما أمر وفعلوا ما ذكر وفي الحال دق الطبل الرجوج فارتجت منه السهول والمروج وهو الطبل الذي كان لتبع حسان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى ركبت الأبطال والفرسان وركب المهلهل متسربلاً بالسلاح كأنه ليث الغاب وعلى رأسه الرايات ومن حوله القواد والجنود فعند ذلك سارت المواكب قاصدة وادي الذئاب وما زال العسكر يقطع السير الأقفر إلى أن أشرف على تلك الديار وفي اليوم الثالث عند منتصف النهار لما قرب المكان وانكشف للعيان ورآه الأمير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا: لقد أقبل علينا الزير بالجموع والفرسان والمشاهير واليوم تباع الأرواح بيع السماح وفي الحال انتخب الأمير مرة ألفاً من الأبطال وأرسلهم لملاقاة الأعداء في تلك البيداء وكان المقدم عليهم ابنه الأمير جساس وجماعة من عظماء الناس فسار الجحفل طالباً جيش المهلهل ثم فرق ألفاً أخرى في الصحراء وقدم عليها ابنه همام وحثهم على الحرب والصدام وأقام هو وباقي العسكر على الجانب الأيسر حتى إذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان ولما شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والأبطال قسم عسكره ثلاثة أقسام

وتقدم ولما اقتربت العساكر من بعضها البعض وانتشرت جموعها في تلك الأرض حملت الفرق والجيش على الجيش قد انطبق وقصد المهلهل فرقة الأمير مرة بعشرة آلاف من أهل الشجاعة والقدرة واشتبك القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وارتجفت الوديان من قعقعة النصال فكان يوماً مريعاً فظيعاً يشيب منه الطفل الرضيع فما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة وفرساناً غابرة فللَّه در المهلهل وما فعل ذلك اليوم من العمل فإنه هجم هجمة الأسود وفرق المواكب والجنود ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار ونمرود وكان كلما قتل فارس منتخب يقول: يا لثارات كليب ملك العرب ويلقي نفسه في مهاوي العطب أملاً بالنصر وبلوغ الأرب وما زال على تلك الحال حتى قتل خمسمائة من الأبطال ولما اشتدت الأهوال تأخرت عنه الرجال خوفاً من الهلاك والوبال وهو يجول ويدور ويهدر كالأسود والنمور ويقول وا كليباً قتيل الجور أين عيناك تراني وتشاهد حربي وطعاني فيا ليتني كنت فداك ولا كان من يسلاك.

قال الراوي: وكانت نيران المعامع والحروب والوقائع مشتبكة في ثلاثة مواضع واستظهرت جيوش المهلهل على أعدائها وبلغت غاية مناها وفعلت باقي الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذا الحال من الظهر إلى غروب الشمس فقتل من بكر ثلاثين ألف نفس ومن جماعة المهلهل خمسة آلاف بطل فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا في الخيام والمضارب ورجع المهلهل وهو الغالب وكأنه أرجوان مما سال عليه من أدمية الفرسان فاجتمع السادات والأعيان فهنؤوه بالسلامة وقالوا: مثلك تكون الشجاعة يا زينة الأكوان وجوهرة هذا الزمان فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والإنعام ثم أكلوا الطعام وأخذوا يتذاكرون بأمر الحرب والصدام وكان للمهلهل صديق يركن إليه ويعتمد في أموره عليه قوي الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس بن أبان وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العلية فقاتل معه في ذلك اليوم وفتك في صناديد القوم وكان لا يفارق الزير في القتال ويحمي ظهره من غدر الرجال فقال له إمام الفرسان: ما رأيك يا ابن أبان في الهجوم على الأعداء اللئام تحت جنح الظلام فإني واللَّه كلما أذكر قتل كليب تتوقد بقلبي النيران وليس لي عنهم صبر ولا سلوان فقال: تمهل يا أمير مهلهل فإن النهار قد اقترب ولا بد لنا

من بلوغ الأرب لأن القتال في الليل يجلب علينا الويل فتخلط الأحزاب ولا تعود تعرف الأعداء من الأحباب لأن الظلام يحجبنا عن بعضنا البعض ونتشتت في هذه الأرض فاستصوب الزير كلامه وبات الجيشان يتحارسان وأوقدوا النيران فكانت بنو بكر وباقي قبائل العرب قد باتت في شدة وتعب وأيقن الأمير مرة بأنه سيغلب ويقهر من سيف الزير الأسد القسور.

ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح تبادر العساكر إلى ميدان الحرب والكفاح واصطفت الفرق إلى صفوف وترتبت المئات والألوف وتأهب المهلهل للحرب والطعان فركب ظهر الحصان وتقدم معركة الطعان وتبعه امرؤ القيس بن أبان وسائر الأبطال والفرسان بقلوب أقوى من الصوان وركب الأمير مرة وبقية الفرق وتمنطقوا بالسلاح والدرق ودقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رؤوس الأمراء والسادات من جميع الجوانب والجهات وهجم كل فريق وتقاتلوا بالسيوف والمزاريق والتقت الأمم وقام الحرب على ساق وقدم وما مضى ساعة من النهار حتى اشتد لهيب النار وطلع قتام الغبار وانذل الجبان وحار وارتفع الصياح وعلا وارتجفت أقطار الفلا ولبست الأرض من الدما حللا وعظم بينهم البلا والويل وعاد بياض النهار كسواد الليل واقتحم المهلهل صفوف الأعادي كونه ليث البوادي وجال الميامن والمياسر وطعن بهم طعناً يذهل النواظر ويحير العقول والبصائر وهو يقول: يا لثأر كليب مهجة فؤادي ومن كان سندي واعتمادي ولما طال المطال أشفى غليله من قتال الأبطال وقال:

ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو نبيد الحيين بكراً وذهلا
ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو أدق الرجال قهراً وذلا
ذهب الصلح أو تردوا كليباً أو تعم السيوف شيبان قتلا

فانذهلت الفرسان من هول قتاله وحربه ونزاله وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وارتحل ودخل الليل وأقبل فرجع الأمير المهلهل بباقي الجيش والجحافل وجميع أكابر عشيرته وأهله وأخوته يتحادثون فيما يجري ويكون فاستقر الرأي على سرعة الإنجاز والجهاد في الحرب والبراز قبل أن يطول الأمر وتفوتهم الغلبة والظفر ثم أكلوا الطعام وباتوا في الخيام ولما طلع النهار وأشرقت الشمس بالأنوار وتأهبوا للحرب

والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيول وتقدمت الفرسان والأبطال إلى ساحة القتال وكذلك فعل الأمير مرة والأمير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وكان الأمير المهلهل في أول الجحفل فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب أقوى من الجبل وهو يهدر كالأسد ويضرب فيهم بالسيف المهند وكان كلما قتل فارساً يقول يا لثارات كليب فقصدته الأبطال من اليمين والشمال وهو يضرب فيهم الضرب الصائب ولا يبالي بالعواقب حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الألوف بطعناته وما انتصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار وكانوا من الأبطال والفرسان المعدودة وكذلك فعل امرؤ القيس بن إياد وباقي القواد والشجعان وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا إلى المضارب والخيام وكان قد قتل من عرب المهلهل نحو ثلاثة آلاف بطل ولما أصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيل وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول ينشد ويقول:

هلموا اليوم نفني آل مره ولو كانوا ثلاثين ألف كره
وسيف الهند يقطع في يميني فلا نخشى المهالك والمضره
فاحموا يا بني عمي لظهري فتحظوا بالأماني والمسره
فكل الناس ترهب من قتالي إذا ما جلت في الميدان كره
وسوف أبيد جساساً وقومه وأسقيهم من حروبي كأس مره

ثم حمل على الكتائب وأظهر الغرائب والعجائب وقتل كل شجاع غالب وما زال القوم في حرب وصدام وقتل وخصام مدة ثلاثة شهور حتى أشفى الزير غليله من بني بكر وقتل منهم كل سيد جليل وفارس نبيل وكان عدد من قتلهم في تلك الوقائع نحو مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وقتل من جماعة الزير نحو عشرة آلاف بطل فلما رأى جساس ما حل بقومه من النوائب خاف من العواقب وعلم أنهم إذا ثبتوا أمامهم يهلكون هلاك الأبد ولا يبقى منهم أحد فولى وطلب لنفسه الهرب مع باقي طوائف العرب وغنم الزير غنائم كثيرة وأموالاً وفيرة ثم رجع مع الفرسان إلى الأطلال في أحسن حال وأنعم بال ونزل في قصر أخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهاديه وكان يترقب

الأوقات للحرب والغزاة فشكرته اليمامة على ما فعل وقالت: لا عدمتك أيها البطل فإنك أخذت الثأر وطفيت لهيب النار ورجعت بالعز والانتصار فشكرها على هذا الكلام وقال: وحق رب الأنام لا يشفي فؤادي ولا يطيب لذيذ رقادي حتى أقتل الأمر جساس وأجعله مثلاً بين الناس وهذا الأمر سيتم عن قريب بإذن السميع المجيب.

قال الراوي: بينما هو يترقب الأخبار ويقتفي منهم الآثار إذ دخل عليه العابد النعمان الذي تقدم ذكره قبل الآن وكان من أصحاب الزير وأصدقائه المشاهير فسلم عليه وتمثل بين يديه فنهض له على الأقدام وأكرمه غاية الإكرام وبعد أن جلس قال للزير: اعلم يا أمير أني أتيت الآن من أبعد مكان أولاً لأهنيك بالانتصار وأعزيك على فقد أخيك البطل الكرار وثانياً لأعلمك بأنه ظهر لي في المنام من مدة عشرة أيام رؤيا عجيبة تشير إلى أحوال غريبة وهو أنه قادم عليك سبع سنين منحوسة وأيامها عليك معكوسة فإياك في هذه الأيام أن تحارب أحداً من ملوك الأقطار بل تجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاحاً في الوطن ومتى تمت هذه الليالي ورافقك السعد والإقبال فإن حاربت انتصرت وإن ظفرت قهرت فشكره الزير على هذا الاهتمام وغمره بجزيل الإنعام ومن ذلك اليوم أخذ لنفسه الحذر وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف أيامه بشرب المدام وأكل الطعام واشتهر الخبر بالقبائل أن الزير أوقف الحرب سبع سنين كوامل كانت بني مرة قد هامت بالأقطار خوفاً من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم على قتله كليب الأسد الغشمشم وما زال هو وقومه في خوف وحذر من عواقب الأمور إلى أن بلغهم خبر توقيف الحرب فزالت عن قلوبهم الهموم والأهوال ورجعوا إلى الأطلال. أما الزير فإنه استمر على تلك الحال في أرغد عيش وأنعم بال إلى أن كانت السنة السادسة فركب إلى الصيد في جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة أيام، ومن الاتفاق الغريب أن الأمير جساس رأى حلماً في بعض الليالي وهو أن حوضاً قرب صيوانه كانت قومه تشرب منه فإذا بذئب كاسر قد جاء إلى الحوض وهو بصفة جمل كبير وله ثمانية أنياب فشرب من الماء ثم ضرب الحوض بنابه فانشق من جانبه وتهور ذلك الماء حتى كادت قومه تهلك من شدة العطش والظمأ.

ثم رأى النسوان والأولاد بثياب سود والدم جارٍ مثل السيل والمجاري

والجمال تنهش بعضها البعض ودماؤها تسيل على وجه الأرض فاستيقظ جساس خائفاً من هول ذلك المنام فاستدعى إخوته وبني الأعمام وقص عليهم ما رأى وبصر فاستعظموا ذلك الأمر وقالوا: لا يوجد أحد يقدر على تفسيره سوى المنجمين فأرسل واستدع عماراً الراحي فإنه يفسر لك على يقين فأرسل إليه فحضر وقص عليه ذلك المنام فضرب الرمل ورسم الأشكال فبانت له حقائق الأحوال ثم التفت إلى جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم: هذا المنام من العجائب وهو يدل على شر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم بوقت قصير وظهر لي أيضاً أن أخا المهلهل عنده مهر أدهم اسمه عندم قوي العصب والحيل عديم المثال في الخيل فسعد الزير مقرون بهذا الحصان وبه ينتصر في الحرب والطعان فإذا ملكتم هذا الجواد نلتم المراد وأسرتموه في القتال والطراد فلما سمع جساس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام وقال لهم: قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما في الحي غير النساء والحصان موجود في الخيام وهذه أوقات الفرصة وإزالة الغصة ثم أرسل رجلاً ليكشف الخبر فسار ثم رجع وأخبره بصحة الكلام فركب جساس في ثلاثة آلاف بطل وطرق ديار المهلهل على عجل وأحاط بساحة الدار من اليمين إلى اليسار فاستعظمت بنات كليب ذلك الأمر ولم يعلمن السبب فطلت اليمامة رأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس: ما الداعي يا خالي لقدومك إلينا بالأبطال والحي خالٍ من الرجال؟ فقال: جينا نطلب المهر الأدهم المدعو بعندم فقالت: أهلاً وسهلاً فيك ومهما طلبت فلا نمسكه عنك غير أن المهر لا خفاك هو خاصة عمي عدية فلا يمكننا أن نسمح فيه ثم أشارت تقول:

لقد قالت يمامة في بيوت ... ألا يا مرحباً فيكم خوالي
ألا يا مرحباً فيكم جميعاً ... عداد القطر مع عد الرمالي
بكم قد حلت البركة علينا ... وزال الشر عنا مع نكالي
فمهما تطلبوا مني تشوفوا ... خيولاً مع بغالاً مع جمالي
ولكن مهر عمي غير ممكن ... أسلمه فإن المهر غالي

قال الراوي: فلما سمع جساس شعرها ونظامها أجابها يرد على كلامها:

تعالوا اسمعوا قول اليمامة ... تقول المهر لا أعطيه غالي

فـإنـي قـاصـد أخـذه سـريـعـاً ولا أخـشـى الـعـداة ولا أبـالـي

ثم نزل عن ظهر الفرس ودخل إلى الإصطبل فوجد المهر فوضع عليه العدة وركبه وقال لليمامة: قد أخذت الحصان وغداً أطاردكم على ظهره ثم سار وهو فرحان حتى وصل إلى الأوطان فقال لإخوته: قد أتيت بالحصان وأود أن أجربه بالميدان فانتخبوا ثلاثين رأساً من الخيل الصوافن فاركبوهم في عشرة مكامن وأنا أسري عليكم أسرع من الريح فاتبعوني في البر الفسيح فإن سبق هذا الجواد بلغنا منه المراد في الحرب والطراد فأجابوه إلى ما أراد وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان أخو جساس القميرة ووقف في آخر كمين وركب جساس المهر وأطلق له العنان فسار به في تلك القفار أسرع من الطير إذا طار ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعاً ما عدا القميرة ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وأمر العبد أن يربطه بقرب صيوانه ووكل به ماية عبد وقال: لقد أقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد أما الزير فإنه رجع من الصيد ودخل الإصطبل وتفقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد إلى القصر وسأل اليمامة وأشار يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل بدمع قد جرى مني مداد
يمامة رحت أنا للصيد قانص وقومي وإخوتي ثم الجياد
لنا عشرون يوماً في فلاة ودرنا من بلاد إلى بلاد
وصدنا الطير من وحش كبير ورديـنا ورجعنا للبلاد
وجيت لمهر أخي ما لقيته شرد عقلي وعني عاد غادي
فأين المهر قوطر يا يمامة عدم صبري وفارقني رشادي
أمات المهر أم أحد سباه من الأوباش والناس الأعادي

فلما سمعت اليمامة شعر عمها أجابته بقولها:

تقول اليمامة يا عم اسمع ألا يا عم جاؤونا الأعادي
أتى جساس أخذه غصب عنا أنا حرمة وما لي من جلادي
فقلت لا تأخذه يا خال تندم يجوك غداً على خيال جيادي

فلما فرغت من شعرها ونظامها أجابها الزير قائلاً:

يقول الزير قهار الأعادي أنا السبع الجسور بكل وادي

غـداً لا بـد أمـشـي لـلـقـاهـم وأحـصـد جـمـعـهـم يـوم الـجـلاد
وآخـذ ثـأرنـا مـن آل بـكـر وأطـفـي الـنـار مـن طـي الـفـؤاد

فلما فرغ الزير من شعره دخل وجلس في الديوان وجمع إخوته والأمراء والأعيان وأخبرهم بواقعة الحال وقال لهم: ما رأيكم في استجلاب الحصان؟ فقالوا له: الرأي رأيك ونحن طوع يديك قال لهم الزير: اركبوا غداً في ثلاثة آلاف فارس واكمنوا في وادي الهجين وأنا أكمن في وادي المعلا وكان هذا المكان يبعد عن بني مرة ميلاً ثم قال لأخيه عدية: وأنت قم آلان وغير ثيابك وزيك والبس ثياباً ممزقة حتى لا أحد يعود يعرفك ثم اذهب لحي بني مرة واجلس بقرب صيوان جساس فإذا سألوك عن بلادك ومهنتك فقل لهم: إني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة الخيل وأنا قد بلغني أن جساس من محبته بالحصان كل يوم يسلمه إلى سايس فإذا قالوا لك: هل تريد أن تخدم عندنا وتسوس هذا المهر فاقبل حتى إذا تمكنت منه تركب ظهره وتلحقنا إلى ذلك المكان فمتى صرت هناك لا تخف ولا تحسب لهم حساباً ولو كانوا بعدد التراب فإني سأبيد جمعهم وآخذ ثأرنا من جساس فاستصوب عدية رأيه ولبس ثياباً ممزقة وتعمم بعمامة والتف بحزام عتيق وغير زيه وتنكر وسار يقطع البر الأقفر إلى أن دخل حي بني مرة فقصد صيوان جساس وكان قد أقبل الليل فرقد بين أطناب الخيام ولما كان الصباح جلس الأمير جساس واجتمعت حوله أكابر الأعيان ثم وضعوا موائد الطعام وأخذوا يتذاكرون بالكلام فبينما هم كذلك إذ كانت من جساس التفاتة فرأى عدية وهو على تلك الصفات فشفق عليه وقال لبعض غلمانه: أطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته فأخذ له الغلام صحن طعام وسأله عن بلاده فقال: إني من بلاد الصعيد ومهنتي سياسة خيل الأجاويد وقد جار علي الزمان فأتيت قاصداً أهل الفضل والإحسان إلى أن وصلت لهذا المكان فطيب الغلام خاطره وأعلم مولاه بحاله فقال جساس: إذا كان من بلاد الصعيد فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد فدعوه يسوس لنا المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد وإن وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلي وجعلته رئيس إصطبلي فلما قال له الغلام: هذا دعا لجساس بطول العمر ثم إنه تحزم وتقدم إلى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال له: هذا يومك يا جوادي فقد بلغت الآن مرادي وكان المهر لما رأى صاحبه عرفه فمال إليه وآلفه فتعجب جساس وباقي الناس لأن الجواد كان لا يألف أحداً

من العبيد الموكلين عليه وكان كل من قاربه ضربه برجليه فقال جساس: وحق ربّ الأنام إن هذا السايس يستحق الإكرام والإنعام وكان عدية لما تمكن من المهر اعتلى ظهره ثم لكزه برجليه وصاح بين أذنيه فسار به مثل ريح الهبوب وجد في قطع البطاح كأنه طير بلا جناح فلما رأى جساس تلك الحال تغيرت منه الأحوال وعلم أنها حيلة قد تمت عليه ولطم على خده ووجهه وصاح على الأبطال والفرسان وقال: دونكم هذا الشيطان فقد احتال علينا في المقال وخدعنا بالمكر والاحتيال حتى نال طلبه وبلغ قصده وأربه.

فركبت الفرسان الخيول واعتقلوا السيوف والنصول وتبعوه في تلك السهول وهم يصيحون وراه ويجدون في قطع الفلاة إلى أن وصل إلى ذلك الوادي والغدير فوجد أخاه الزير وهو كامن هناك في جماعة من الأبطال وصناديد الرجال فأعلمه بواقعة الحال وقال له: خذ حذرك الآن فقد أتتك الفرسان من كل جانب ومكان فتبسم المهلهل وقال: سوف ترى ما أفعل ثم إنه نزل عن ظهر حصانه وأعطاه لأخيه وأخذ المهلهل الأدهم ووضع عليه العدة ثم ركب وتلملم وإذا بالخيل والمواكب قد أحاطت به من كل جانب فصاح عليهم وحمل بقلب أقوى من الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه الليث فطير الرؤوس عن الأبدان وفتك فيهم فتك الذئاب بالأغنام وفي أقل من ساعة أدركته باقي الرجال المكمنين في وادي الهجين فانصبوا عليهم كالشواهين من الشمال واليمين وكان قد وصل الخبر إلى جساس فأخذه القلق والوسواس فركب بباقي الأبطال ومن يعتمد عليهم من الرجال وقصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وجرى الدم وسال وكثر القيل والقال وتزلزلت الأرض من هول القتال وكانت وقعة عظيمة لم يسمع بها في الأيام القديمة انهزم فيها جساس أقبح هزيمة وغنم المهلهل غنيمة جسيمة لها قدر وقيمة ورجع إلى البلاد بالعز والانتصار فالتقته النساء بالدفوف والمزاهر ثم طلع إلى القصر وهو منشرح الصدر فشكرته بنات أخيه على ما فعل قائلات: للّه درك من بطل فقد أخذت الثأر وطفيت من القلوب لهيب النار فاللّه يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك وأعاديك فشكرهن على ذلك الكلام وبعد أن خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام ثم دخلت عليه أمه وقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصار وطلبت منه أن يرفع عن بني مرة السيف البتار فاستقبلها بالوقار والاعتبار وقال لها: واللّه إني لا أصالحهم

يا أماه حتى يعود كليب إلى الحياة ثم تذكر تلك الواقعة وما جرى له مع القوم فأنشد:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل وقلب الزير قاسي ما يلينا
وإن لان الحديد ما لان قلبي وقلبي من حديد القاسيينا
تريدي يا أميمة أن أصالح وما تدري بما فعلوه فينا
فسبع سنين قد مرت عليّ أبيت الليل مغموماً حزينا
أبات الليل أنعي في كليب أقول لعله يأتي إلينا
كأن كليب في روس المعلا تغشاه الذئاب الجائعينا
أتتني بناته تبكيه وتنعي تقول اليوم صرنا حائرينا
فقد غابت عيون أخيك عنا وخلانا يتامى قاصرينا
سللت السيف في وجه اليمامة فقالت لي أمام الحاضرينا
فأنت اليوم يا عمي مكانه وليس لنا غيرك معينا
وقلت لها لك البشرى يمامة أنا عمك حماة الخائفينا
كمثل السبع في صدمات قوم أقلبهم شمالاً مع يمينا
فدوسي يا يمامة فوق رأسي على شاشي إذا كنا نسينا
فإن دارت رحانا مع رحاهم طحناهم وكنا الطاحنينا
أقاتلهم على ظهر المطهم أبو حجلان مطلوق اليمينا
فشدي يا يمامة مهري شدي واكسي ظهره السرج المتينا
وهاتي حربتي رطلين وأزود وحطيها على عدد مكينا
ونادي لي عدية وكل قومي صناديد الحروب المانعينا
ونادوا إخوتي يأتوا سريعاً لنلقى جيش بكر أجمعينا
فنادتهم أتوا كأسود غاب وقالوا قد أتينا يا أخينا
وباتوا يحرسون الليل كله وقضوا الليل حقاً ساهرينا

قال الراوي: فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره الجميع على مقاله وباتوا تلك الليلة في سرور وأفراح إلى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح أمر الزير بالاستعداد وركب ظهر الجواد فتبعه الفرسان والقواد وقصدوا بني

مرة فالتقاهم جساس مع إخوته وأهله وعشيرته واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وابتلت بنو مرة بالبلا والويل وكان الزير يحصد فيهم النهار والليل واستمر القتال بين الفريقين سنتين حتى فقدت بنو مرة في هذه الحرب نحو اثني عشر ألف أمير عدا عن السادات والأكابر والجيوش والعساكر وكان الزير يأمر قومه بقطع الرؤوس ووضعها في المخازن لأنه كان أقسم باللّه أنه سيملي البيوت والأماكن من جماجمهم فلما طال المطال واشتدت على بني بكر الأهوال اجتمعت أكابر الناس مع الأمير جساس وأخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون من حرب الزير لأن الزير لا يقبل منهم فدى وجميع وسائطهم التي استعملوها لإيقاف الحرب راحت سدى فقال سلطان لأخيه جساس: اعلم يا أخي بأن الزير في كل صباح يمر على قبر أخيه كليب فيحييه بالسلام ويقول له: قتلت في ثأرك فلان وفلان فهل اكتفيت أم لا فلا يرد عليه أحد فالرأي عندي أن تنتخبوا رجلاً وتضعوه داخل القبر بحيث لا يراه أحد فإذا مر الزير على القبر حسب عادته وسأل أخاه ذلك السؤال فيحييه الرجل بصوت خفيف من قلب ضعيف لقد اكتفيت يا أخي فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم وإياك أذية البشر فإنه مما يجلب لي الضرر فإذا سمع هذا الكلام فلربما ينطلي عليه المحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال فاستصوب جساس وباقي الأعيان رأي الأمير سلطان وكان في القبيلة رجل فقير الحال فاستدعاه جساس وأفهمه ما يعمل وقال إذا أجبتنا إلى الطلب وبلغنا الأرب أعطيتك مهما تريد من المال والعبيد فقال: الأجرة مليحة ولكن الطريقة قبيحة فأخذ جساس يحثه بالكلام ويرغبه في هذا الشعر والنظام:

على ما قال جساس بن مرة ألا يا فارغ الأشغال اسمع
فلي عندك حاجة صغيرة تقضيها سريعاً ثم ترجع
فإن الزير لاشانا جميعاً وفرق جمعنا في كل موضع
ولا يقبل رجانا أو عطانا واعدم في الوغى كل ليث أروع
بثأر كليب قد صرنا شرايد وعن أفعاله ما كان يرجع
يمر على قبره كل صباح ويزعق صوت للأكباد يفزع
يقول ألا نعمت أخي صباحاً أيكفي ما قتلت أزيد أو أرجع
فاذهب واختبئ في القبر حالاً إذا صاح المهلهل أنت تسمع

إذا سألك أحارب أو أصالح أجيبه أنت يا محفوظ ارجع
إني رضيت منك ونلت ثأري وأنت بقتلهم لا عدت تطمع
لعله يظن أنك أنت أخيه فيصفح عن مآثمنا ويرجع

فلما فرغ جساس من نظمه قال له الفقير: على الرأس والعين وفي الليل حفروا سرداباً أوصلوه إلى القبر ثم أدخلوا الرجل فيه وفي الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعته الأبطال والفرسان ومر على قبر أخيه حسب عادته ونادى بصوت عال نعمت صباحاً يا أخي كليب قد قتلت بثأرك يوم أمس خمسة آلاف فارس أيكفي ما قتلت أم أرجع إليهم أفنيهم عن بكرة أبيهم؟ فأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف وأنت أنعمت صباحاً يا أخي الحنون يا ساقي الضد كاسات المنون كف عن الحرب فقد اكتفيت واشتفيت وإن قاتلتهم بعد اليوم تكون قد تعديت وبغيت فتزيدني ضرراً وغماً وكدراً فإن نفسي قد بلغت مناها ونالت مشتهاها فكثرت خيراتك وزادت في الدنيا مسراتك فلما سمع الزير هذا الكلام زالت أتراحه وزاد فرحه وانشراحه وقال: سبحان من يحيي العظام وهي رميم أنت يا أخي بخير ونحن بعدك نقاسي الضنك والضير ثم نزل عن ظهر الحصان ودخل إلى القبر وهو فرحان وقال: إذا كنت بخير يا أبا اليمامة فما هذه السكنة والإقامة بعد العز والكرامة فقم إلى بناتك فإنهن في حزن وكدر ثم تقدم إليه وتأمل فيه بالنظر فرآه أنه ذلك الرجل المعهود فغاب المهلهل عن الوجود وجذبه من لحيته وأخرجه من السرداب وقال له: أصدقني بالخطاب فمن أنت ومن تكون قبل أن تشرب كأس المنون فأعلمه بواقعة الحال وحقيقة الأعمال فسل السيف ليقتله وقد أغاظه فعله فقال: أنا بجيرة كليب أخيك فلا كان من يعاديك وقد غرني جهلي مع قلة عقلي حتى جرى ما جرى يا فخر الورى فلما سمع الزير كلامه تبسم وصفح عنه وأعطاه جواداً من أطيب خيول العرب وألف دينار من الذهب فدعا له بطول العمر وخرج من القبر وهو يقول: واللَّه إن الأمير كليب يحمي الخائف في مماته كما كان يحميه في حياته ثم رجع الزير إلى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة وفي الغد ركب في فرقة من الأبطال وقصد بني مرة واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال، وما زالوا في قتال وصدام مدة عشرة أيام فانكسرت بنو مرة أعظم انكسار وقتل الزير منهم مقتلة عظيمة وكان يأتي برأس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مدة ساعة ثم يدفنها تحت

الثرى ويبني فوقها القصور وكان كلما أقبل من الحرب تقابله اليمامة مع النساء فتقول: يا سيد الناس هل أتيت برأس خالنا جساس حتى نخلع السواد ويطيب الفؤاد فيقول لها: كوني براحة بال فسوف تبلغين الآمال بإذن اللَّه المتعال.

قال الراوي: هذا ما كان من المهلهل وأما جساس فإنه قد استقتل لما ضاقت به الحيل فاجتمع مع أهله وعشيرته وعقدوا بينهم ديواناً فاستقر رأيهم أن يذهبوا إلى الحبشة والسودان ليستنجدوا بالملك الرعيني ابن أخت التبع حسان فركب مع إخوته وأكابر عشيرته وأخذ معه أخته الجليلة لتشفع لهم عند حريم الملك الرعيني وبقي أخوه شاويش في الحي وكان هذا يحب الزير من أيام صباه فعند رحيل جساس أتى شاويش إلى الزير وأعلمه بما جرى وكان من مسير إخوته إلى عند ملك الحبشة والسودان فأعطاه الزير الأمان وقال له: إني ما عدت أحاربكم من الآن حتى تحضر إخوتك إلى الأوطان بالأبطال والفرسان وتوقف الزير عن محاربتهم وصار يصرف أوقاته بالصيد والقنص، وأما جساس فإنه كان قد جد في قطع القفار حتى وصل إلى بلاد الحبشة ودخل على الملك الرعيني وقبل قدميه وأعلمه بحالتهم الحاضرة وطلب منه النجدة على حرب الزير وذكر له أيضاً أن كليب قتل خاله التبع حسان وهو قتل كليب بقتله وقام أخوه الزير فحاربهم حتى كاد يفنيهم فلما سمع الرعيني هذا الكلام قال: لقد بلغت منكم اليوم المرام ولا بد من ذبحكم بحد الحسام لأنكم من قوم لئام قتلتم خالي وأتيتم تستجيرون بي ثم أمر بالقبض عليهم وكانت الجليلة واقفة على باب الصيوان وهي مثل الطاووس ولابسة أفخر الملبوس وكأنها العروس فلما شاهدت ما جرى على قومها خافت من العواقب فشقت المواكب وتمثلت أمام الرعيني فقبلت أياديه ودعت له بطول العمر فلما رآها الرعيني تعجب من فرط حسنها فمال قلبه إليها ووقع في شرك هواها فقال: من تكونين يا مهجة الفؤاد وبغية المراد؟ فقالت: أنا أخت القوم الذين أمرت بالقبض عليهم بدون ذنب ثم أشارت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... أيا أبو فهد أصحي دير بالك
وانظر يا سياج البيض فينا ... وانظر الذي وقفوا قبالك
أنا قصدتك يا ملك البوادي ... يا من بالملا شاعت فعالك
ملوك الأرض كنا يا مسمى ... فأنت نظيرها ونحن مثالك

فالذي جرى كله مقدر أيا فخر الورى من قتل خالك
قتل خالك كليب في حسامه وقام أخي الذي وقف قبالك
قتل لكليب عن خالك بسيفه كرامة خاطرك واصفى لبالك
ظهر لكليب أخ اسمه المهلهل حرمنا النوم زاد اللَّه مالك
قتل منا أماجيد كثيرة أتينا واقعين على ديالك
فهذا اليوم يومك يا مسمى فدق الطبل واركب في رجالك
وسر معنا إلى الزير المهلهل فاقتله ودوسه في نعالك
واحكم سائر العربان تغنم وكل أموالهم تبقى حلالك
ولا تشمت العدا يا أمير فينا أتينا لك وصرنا من عيالك
وأنت صميدع شهم كريم جميع الخلق تفزع من خيالك

فلما فرغت الجليلة من نظامها وفهم الرعيني قصدها ومرامها ثارت في رأسه الحمية وقال: قد فهمت قولك يا صبية ثم أنشد يقول:

قال الرعيني أبو فهد قال ألا يا جليلة اسمعي مقالي
وأنتم افهموا قولي يا ملوك أولاد مرة ترون الهم زال
أتيتم تلتجوا فينا جميعاً وقعتم علينا وقع العيالي
من جور الزير يا أهل الكرام دهاكم ضناكم رماكم بحبالي
فوحياة رأسي ورحمة أبي ومن خلق الأرض وأرسى الجبال
لأركب عليه بكل فحول وأجرد عساكر شبه الرمالي
وأقتل عداكم بحد السيف وأنا أدع الزير في أسوأ حالي
جليلة طيبي أنت وأبشري أنا فدى أخوك تحت النضال
أيا أخي غطاس انهض الآن واجمع الفوارس والأبطال
نادي على الجيش أن يركبوا ويلبسوا الزرد والسيوف الصقال
ودقوا الطبول وشدوا الخيول وامشوا الفجر شبه الفيالي
فدعنا نسير نزيل العسير عن أولاد مرة هذا النكالي

قال الراوي: فلما فرغ الرعيني من كلامه نهض أخوه غطاس والوزير وجمعوا الأبطال والفرسان من عساكر السودان ونادى المنادي أن السفر يكون

بعد ثلاثة أيام فتجهزت العساكر للمسير لحرب الزير وكان عددهم ستماية بطل ففرح جساس لما رأى تلك السهول امتلأت بالخيول وفي اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت العساكر كالبحور الزواخر وفي مقدمتها الملك الرعيني وأكابر دولته وجساس وباقي الناس وما زالوا يقطعون البراري والآكام حتى وصلوا بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذه العساكر ليهيئوا لهم الأطعمة والذخائر فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحاً عظيماً وهيؤوا لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والمدام وخرجت النساء والرجال للقائهم فلما وصلوا إلى الديار نزلوا في المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الوطر كل هذا يجري والزير ليس عنده خبر في شيء من هذه الأمور بل كان مواظباً على السرور والخمور فبينما هو كذلك إذا دخل عليه أخوه عدي وقال له: أنت جالس في صفاك ولا تدري بما دهاك من أعداك وأشار ينشد قائلاً:

لقد قال الفتى المدعو عديا ودمع العين فوق الخد ساجم
أراك اليوم في زهو ولهو تنبه يا أخي إن كنت نايم
فقم وانظر إلى ما سوف يجري من الأعداء يا ابن الأكارم
أتونا قوم مرة بالرعيني ملك جبار بالأحكام ظالم
فقد ذهبوا إليه يا مهلهل فجاء بست كرات عوالم
بهم من كل قوم ليث أروع وهو بينهم مثل الصقر حائم
تبدى الزير حالاً ثم قله تخاف من العدا وأخوك سالم
أنا وحدي ألاقيهم بعزمي أنا الدعاس في يوم الزحايم
وإني سوف أفتك بالرعيني وأقطع رأسه واللَّه عالم
وأفني جيشه مع جيش مرة أنا المقدام ما بين العوالم

قال الراوي: فلما فرغ الزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من هذا المقال وشكروه على هذه الفعال وأخذوا يستعدون للحرب والطعان وأما الزير فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من البشر وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الأمراء وأرباب المناصب طمعاً بالفضة والذهب ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام تحت الثياب وأخذ معه

بعض العبيد والغلمان وسار إلى قبيلة مرة ولم يعلم به إنسان ولما اقترب من الحلة نزل عن الجواد وسلمه للغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل إلى صيوان الرعيني فوجده جالساً وحده فسلم عليه ودخل وتمثل بين يديه فلما رآه الرعيني في ذلك المنظر خاف وانذعر وسأله عن مهنته فقال: إنني شاعر أطوف على الأمراء والأكابر فأحصل منهم على الأنعام ومزيد الإكرام وقد سمعت أنك في بني مرة فأتيت قاصدك من مدينة البصرة إلى أن تشرفت بطلعتك وتمثلت أمام حضرتك وكان للرعيني زوجة تدعى بدور كانت واقفة خلف الستار فسمعت ما دار بينهما فأرسلت تقول للملك أن يأمر الشاعر بالإنشاد فقال الملك: أنشد يا شاعر فأنشد يقول:

قال الأديب الذي طالب إحسانك جرحي بوسط الحشا والقلب نزاز
يا بو فهد رعيني استمع ما أقول يا من قلوب العدا بالروع هزاز
قد كنت في خير وفي نعم مستور ما بين أهلي ما أنا معتاز
فصرت شاعر على الأجواد أقصدهم أطوي الأراضي ماشي على عكاز
قالوا فسر للرعيني مقصد الشعراء فذاك جواد يعطي كل معتاز
فجئت طالباً إحسانك وإكرامك يا من حويت المكارم في عطا ممتاز

قال الراوي: فلما فرغ الزير من كلامه أمر الملك الخازندار أن يعطيه ألف دينار فعند ذلك سل الزير سيفه الأبتر أسرع من لمح البصر وضرب الرعيني على عاتقه خرج يلمع من علائقه ثم مال على الطواشية والخدام بضرب الحسام وبعد ذلك هجم على الخيام كسبع الآجام فقتل الرجال ومدد الأبطال فوقع في السودان الضجيج والصياح والعويل والنواح فخرجت أبطال الرعيني من المضارب وركبوا ظهور النجائب فتقلدوا بالسيوف وهجموا على بني مرة صفوف صفوف وهم لم يعلموا سبب ذلك غير أنهم ظنوا أن بني مرة خدعوهم حتى أتوا إلى بلادهم فقتلوا ملكهم وغدروا فلما رأى جساس ما حل بقومه من السودان استعظم ذلك الشأن فركب جواده وتبعته أجناده واضطر أن يدافع عن نفسه ويحامي عن أبناء جنسه فقاتل تلك الليلة حتى استقتل وفعلت أجناده مثلما فعل وكانت ليلة مهولة كثر فيها القتال والجراح إلى الصباح.

فلما فرغ المهلهل من القصد والأمل بهذا العمل أرسل عبده في الحال

إلى الأطلال في طلب الفرسان والأبطال فحضروا عند طلوع النهار وأحاطوا بالأعادي من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة أيام حتى أبلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار وأسد كرار وكان من جملة المقتولين الأمير غطاس قائد جيش السودان فلما رأت السودان ما حل بها من الهوان ولت الأدبار وأوسعت في جوانب القفار وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا في الفلاة وهم يقصدون النجاة ورجع الزير مع قومه التغلبيين غانمين ظافرين فدخل القصر بالعز والنصر وصحبته أكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون لا عدمنا طلعتك أيها الفارس المنتخب فبسيفك انتصرنا ونلنا المراد وقهرنا الأعادي والحساد فلا زالت أيامك في سعود وعدوك مقهور مكمود ثم إنهم أكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا تلك الليلة في سرور وأفراح. أما الأمير جساس فإنه بات في قلق ووسواس وندم على ما فعل وقطع من سلامته الأمل ولا سيما عندما بلغته الأخبار بأن ذلك الاختلاف الذي جرى عليهم في الليل والنهار كان بفضل حيلة المهلهل الأسد الكرار فزاد غمه وعظم حزنه وغمه فكان يطلب من قبائل العرب المساعدة على حرب بني تغلب فانضمت إليه عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعاً يداً واحدة وكذلك انضم مع الزير عدة قبائل مشاهير حتى لم يبق في بلاد العرب قبيلة إلا وقد انضمت مع بني بكر أو تغلب.

ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير في الأوراق أن الأمير المهلهل خرج ذات يوم في عشرة آلاف بطل ومعه الأمير كنيف وكان من أشراف تغلب وفرسانها الغضاريف وتبطن في جوانب القفر ليجس أحوال بني بكر فمر بقبيلة من القبائل يقال لها: بنو تميم وهم فرع من تغلب وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة واجتمع المهلهل بسيدها الأمير عمر وقال له: اركبوا معنا لقتال بنو بكر فأبى وقال: لا نحارب من لا يحاربنا من العربان فقال المهلهل: أما شملتكم الحرب لحد الآن؟ فقالوا: لا يا فارس الميدان فقال: فوحق الإله الخالق ما كنت أظن إلا أنها شملت كل من في المغارب والمشارق وما دام الأمر كذلك يا وجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفاً من العطب واقصدوا غير هذه الديار لأن مرادنا أن نقاتلهم تحت جنح الظلام فإن حاربناهم لا

تأمنون على أنفسهم من شرهم وأذاهم لأنكم فرع من قبيلة تغلب فينتقمون منكم لهذا السبب.

فقالوا: ما علينا من بأس فإنهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه أشد من ضرب الحسام فتركهم وسار على الأثر بمن معه من العسكر وجد في قطع القفار فالتقى بقوم من بني بكر في ذلك الجوار فكبسهم تحت جنح ظلام الليل وأبلاهم بالذل والويل فسلب أموالهم وقتل رجالهم وأخذ رؤوس ساداتهم العظام ورجع في الظلام وطرح الرؤوس بين خيام القوم المعتزلين من بني تميم المذكورين وكانوا راقدين ثم تركهم وارتحل وسار على عجل فلما استيقظت بنو تميم من النوم ورأت الرؤوس بين أطناب الخيام فأيقنوا أنها مكيدة من المهلهل فزاد بهم الخوف والوجل وعلموا أن العدو لا بد أن يتمهل بذلك العمل فنهضوا وارتحلوا من أطلالهم بمواشيهم وأموالهم وانضموا إلى قبيلة تغلب والتجوا بالمهلهل فارس العرب والعجم فلم يبق قبيلة من قبائل العربان في ذلك الزمان إلا شملتها الحرب والهوان.

قال الراوي: ولما عظم الأمر على جساس وضاقت منه الأنفاس قصد العابد النعمان فوقع عليه وشكا حاله إليه وبكى بين يديه وطلب منه أن يسير بالعجل ويقصد الأمير المهلهل ويطلب منه كف الحرب والطعان مدة من الزمان لحينما ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحروب التي أهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الأطفال فلما سمع قوله رق له وسار إلى عند المهلهل في الحال وطلب منه أن يكف عن القتال ولو كان برهة قصيرة ومدة يسيرة وذلك لراحة القبيلتين وخير الفريقين فأجابه إلى ذلك المرام لأنه مكان يحبه دون باقي الأنام وأمر بتوقيف الحرب عن القوم من ذلك اليوم واشتغل المهلهل في تلك الأيام بالملاهي وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الأصوات والأنغام ومغازلة النساء في الصباح والمساء وكان جساس يترقب على المهلهل الفرص ليقتله ويزيل ما بقلبه من الغصص فبلغه في بعض الأيام بأن الزير طريح الفراش في الخيام من كثرة شرب المدام وأن إخوته قد خرجوا للصيد ولا يرجعون إلا بعد ثلاثة أيام فجمع إخوته واتفق رأيهم أنهم بعد غروب الشمس يركب أخوهم سلطان في جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزير على حين غفلة.

ولما كان الليل ركب سلطان في ثلاثة آلاف بطل وقصد حي المهلهل ولما صار هناك هجم على الحي ودخل عليه وهو راقد في الخيمة سكران فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليه وأوثقوه كتافاً ثم نزلوا عليه بالسيوف إلى أن أثخنوه بالجراح وكان دمه يسيل كالمطر فظنوه قد مات فزادت أفراحهم وزالت أتراحهم وقالوا: لقد بلغنا الأرب ورفعنا الحرب عن العرب ثم وضعوه في جلد جاموس وأخذوه إلى عند أخته ضباع وقالوا لها: قد أتيناك بقاتل ولدك فخذيه واشفي منه غليل كبدك فياما قتل ويتم ورمل فما هان عليها ذلك الأمر لكنها أظهرت السرور والفرح وقالت: إن جزاء الغدر الحرق بالنار ثم تركوها وساروا وأما هي فقد احتارت في أمرها وزادت أحزانها عليه لأنه وإن قتل ولدها فإنه شيد للقبيلة ذكراً حسناً لا يبور على مر الدهور ونظرت إليه نظرة الوداع وإذا به يتحرك ثم إنه طلب عبده شهوان وهو يظن أنه في ذلك المكان فقالت له ضباع: قد انتقموا منك أعداك فاصح لقد ذقت الموت والهلاك فلما صحا أنشد:

قال الزير أبو ليلى المهلهل ... ونار الحزن ترقد في حشاه
فكان كليب ملك البرايا ... أتى جساس غدره بالفلاه
جلست مكانه آخذ لثأره ... وكنت أنعيه صباحاً مع مساء
فقال الشيخ كف الحرب عاجل ... ولا تنقل لسيف ولا قناه
جلست بخيمتي والدان جنبي ... وعندي العبد ما عندي سواه
وقومي كلهم للصيد راحوا ... فعرفوا القوم مع باقي العداه
أتوني والمقدر كان كائن ... وصار فينا مثل ما نراه
أتوني لعندك يا أخت حتى ... تنالي الثأر يا غاية مناه
اتركيني يا ضباع أو اقتليني ... أنا أخوك إذا احتبك القناه
فأنتي تشبهي اللبوات حقاً ... وإني مشبه سبع الفلاه
فالقيني بصندوق مزقت ... وارميني ببحر في مياه
أيا أسما افعلي أنت بأصلك ... ربيعة بيننا ما في غباه

قال الراوي: فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الصواب وصار في صفة مفقود وكانت ضباع لما سمعت من أخيها هذا الكلام صار الضياء في

عينيها ظلاماً جاءت بصندوق كبير ووضعت فيه سالم الزير وزفتته وطلته بالقطر وكان عندها عبدان فأمرتهما أن يحملا ذلك الصندوق ويلقياه في البحر فحملاه وسارت معهما تحت جنح الظلام إلى أن وصلوا إلى شاطئ البحر فطرحاه فتقاذفته الأمواج حتى غاب عن الأنظار فبكت ضباع على أخيها ورجعت تنوح من فؤاد مقروح وهي تقول: يا ليتني كنت فداك فقد أحرقت قلبي بفراقك يا جميل المحافل وفخر الأوائل والأواخر ثم أنشدت هذه الأبيات:

تقول ضباع من قلب حزين ... أيا عيني فزيدي في بكاها
كواني البين في أول زماني ... رماني الدهر في أعظم بلاها
أيا عيني فزيدي في سخاكي ... على محزونة فقدت أخاها
لقد فاق الملوك وترتجيه ... ومن أعلى ملوك الأرض جاها
وجساس الذي أفنى كليبا ... طعنه طعنة برمحه في قفاه
ترك دمه على الأرض فاير ... بحربة مسمة من السم سقاها
وقام الزير كي يأخذ بثأره ... فقاتل آل مرة حتى هفاها
لقد قتله جساس بغدر ... اثني عشر ألف حمالة قناها
فقال خذيه لأخته الحزينة ... لنأخذ ثأر ولدها من أخاها
فحطيته في صندوق مقفل ... ومن بني ما يعلم حداها
وقلت له روح يا جمل المحامل ... أيا عود بيتي في انحناها
فأنت ملاذنا يا فخر قومك ... أيا حطاط للجائع عشاها
أيا يوماً أخذه الموج عاجل ... وموج البحر يلطم في مداها
فقلت له روح يا سبع غاب ... بيوم الحرب ما تعطي قفاها
وهذا صار في عهد الجليلة ... إلٰه العرش يعدمها صباها
فسر يا ريح واخبر اليمامة ... لتصبح ثم تمسي في بكاها

ثم رجعت إلى الحي وصبرت حتى أتى إخوتها وبنو عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك المصيبة وما حل بالزير وقالت: واللّٰه إنكم بعد المهلهل تتعبون مع جساس فأسفوا عليه وبكوا من فؤاد موجوع ثم إن ضباع كتمت ما فعلت بأخيها وشاع أنها أحرقته بالنار وأخذت الثأر ولما شاع الخبر وانتشر

بين الناس فرحت بنو مرة وجساس وأما إخوة الزير فإنهم شقوا ثيابهم من فرط أحزانهم وأخذوا يعددونه ويندبونه بأشعار ويذكرون ما له من محاسن الآثار وكان أكثرهم حزناً أخوه عدي الذي يقول فيه:

أيا ويلي فدمع العين هلا ... على الخدين من دمعي صبابه
على فقد الفتى أخي المهلهل ... ونور العين يدري ما أصابه
غدونا كلنا للصيد عنه ... تركناه كسبع وسط غابه
وعند رجوعنا لم نلتقيه ... فأحرق وسط مهجتنا غيابه
فمن يوم أخيه كليب ولى ... فلا يسرح ولا يلقى صحابه
وما فارق محله طول عمره ... ولا نعرف له مدة غيابه
مهلهل راح من أولاد مرة ... وسهم البين ذر لنا نيابه
وبعده كيف عاد يصير فينا ... وجساس فلا تحمل عذابه
ترى بعده سيمحقنا جميعاً ... يشتتنا ولا يخشى عقابه
ألا يا إخوتي ماذا نسوي ... وأين نروح من هذه العصابه
تعال أخي يا درعان قلي ... أيا عزوز يا منية شبابه
ويا حنبل وباقي الإمارة ... تعالوا واسمعوا مني الخطابه
نقول الزير ولى وراح منا ... قتيل ويندفن تحت الترابه

قال الراوي: هذا ما كان من عدية وإخوته وأما ما كان من سلطان أخي جساس فإنه بعد أخذ المهلهل إلى أخته ضباع لتأخذ منه بثأر ولدها ذهب إلى عند إخوته وأخبر جساس بما فعل وأنشد يشرح له الحال:

يقول سلطان بن مرة ... أخويا جساس أيا منيب
رأيت الزير ناصب الخيمة بعيد ... في وسط بستان له يا حبيب
وحده يسكر بالليل والنهار ... رحت أنا إليه من بعد المغيب
في ثلاثة آلاف فارس غانمين ... كل فارس مثل سبع وديب
هجمت عليه يا أخي بالعجل ... ووقعنا عليه بضرب عجيب
ضرب يا جساس بالغ السيوف ... حتى صار دمه جاري صبيب
ضربته حتى قطع منه النفس ... وانطرح بلا مسعف ولا حبيب

ثـم أخـذتـه لأختـه ضـبـاع لـتـأخـذ بـثـأر ولـدهـا الـحـبـيـب
أخـذتـه وأحـرقـتـه بـنـار وألـقـتـه عـلـى جـمـر نـار الـلـهـيـب
هـذا الـذي فـعـلـت بـعـدك يـا هـمـام يـا حـمـاة الـبـيـض في يـوم الـنـكـيـد

فلما انتهى سلطان من كلامه شكره جساس على اهتمامه وقال: بارك اللَّه فيك يا همام فإن فعلك هذا نصر لنا مدى الأيام ثم ساروا إلى الحي وهم في أفراح وانشراح ولما وصلوا إلى الصيوان جلس جساس في الديوان واجتمعت إليه الأبطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة لها قدر وقيمة واجتمع فيها خلق كثير من كل أمير وسيد خطير فرقصت النساء والبنات ودارت بينهم الأفراح والمسرات وانشرحت خواطر السادات وكان عندهم ذلك النهار من أعظم الأعياد الكبار ولما بلغ بني قيس حقيقة الخبر وأن المهلهل مات واندثر غابوا عن الوجود وأيقنوا بالموت الأحمر فزادت بليتهم وعظمت مصيبتهم فمنهم من ارتحل من الديار وقصد الأمير جساس وطلبوا منه الأمان دون باقي الناس فأعطاهم الأمان وجعلهم من جملة العبيد والغلمان ولم يبق عند إخوة الزير من الأشراف إلا شرذمة يسيرة وعصبة حقيرة فقصدهم جساس بالأبطال ودار بهم من اليمين والشمال فسلموا أمرهم إليه ووقعوا عليه فنهب أموالهم وأخذ نوقهم وجمالهم ثم شرط عليهم أن لا يوقدوا ناراً في الليل والنهار ولا يركبوا ظهور الخيل بل يتربصوا مكانهم في الخيام فأجابوه إلى ذلك المرام خوفاً من الاندثار ونزول الدمار وبعد هذا رجع إلى الديار بالفرح والاستبشار فعظم شأنه وتأيد بالعز مكانه وصار له مقام عظيم وحكم السبعة أقاليم أما إخوة المهلهل فإنهم بعد هذا العمل رحلوا من الديار بأولادهم وأطفالهم ونسائهم ونزلوا بوادي الشعاب وهم في بكاء وانتحاب وذل وعذاب وصبروا على حكم رب الأرباب هذا ما جرى لهؤلاء وأما الزير الأسد الغضنفر فإنه لما ألقته أخته في البحر كما سبق تقاذفته أمواج البحر العجاج وساقته التقادير الإلٰهية إلى مدينة بيروت وكان اسمها الخيبرية وملكها يدعى حكمون بن عزرا واتفق بالأمر المقدر أن ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون سمكاً نظروا ذلك الصندوق في البحر العجاج تتلاعب به الرياح وتتقاذفه الأمواج فقال أحدهم للآخر: انظر يا صموئيل هذا الصندوق لقد ساقته إلينا التقادير ثم إنهم قصدوه بالحال وسحبوه إلى الشاطئ بالحبال وذلك بعد تعب شديد ما عليه من مزيد فقال رئيس الشختور لباقي الأعوان:

تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل أن نفتحه يا إخوان فيأخذ كل واحد منا حقه فأجابه بعض الرجال ما هو مرادك بهذا الحال؟ فقال: إن لي نصفاً ولكم نصف لأني صاحب الشختور والرئيس فقال: وحق حمار العزيز ما تنال منه شيئاً يا شبير ثم وقع بينهم الخصام وتشاتموا بالكلام فضرب أحدهم الرئيس بسكين فقتله وكان للرئيس أخ فضرب القاتل بالمقذاف فجندله وما زالوا يقتتلون طمعاً بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى واحد.

واتفق أن حكمون كان قد خرج في تلك الساعة مع أكابر دولته للصيد والقنص فمر من ذلك المكان فوجد الصندوق والرجل والقتلى مطروحة على الأرض فسأل الصياد عن السبب فأخبره بواقعة الحال فتأمل الملك في الصندوق فتعجب من كبره وثقله وأراد أن يعرف ما فيه فأمر بحمله إلى السرايا ورجع مع رجاله فلما وصل أمر بفتحه ففتحوه وإذا برجل طويل القامة عريض الهامة كأنه دعامة واسع المنكبين كبير القدمين مثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فقال الملك: ماذا وجدتم؟ قالوا: يا ملك الزمان فيه إنسان كأنه من عفاريت سيدنا سليمان وعيونه كعيون السباع فتقدم الملك ونظره فخاف منه وارتاع وكان عنده طبيب ماهر اسمه شمعون فتقدم إلى الزير وهو مطروح فجس نبضه فأحس به يتحرك فقال للملك: إنه حي. فقال: هل تقدر أن تشفيه وأنا أعطيك ما تريده وتشتهيه؟ قال: نعم يا مولاي.

ثم نهض على الأقدام وقال: باسم اللَّه العلي العظيم فشمر عن زنوده وأخذ إسفنجة وبلها بالماء الطاهر ومسح الجروح ووضع المراهم على القروح وفتح الزير عينيه فنظر في ذلك الحفل فرأى جماعة من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فاعتراه الانذهال فقال له حكمون: من أنت وما هو اسمك؟ فقال: اسمي الموحد وأعبد الإلٰه العظيم رب موسى وإبراهيم فقال: ما هي قصتك وسبب وضعك في هذا الصندوق؟ فقال: كنا أربعة سياس عند أحد الملوك وكنت المقدم على الجميع فحسدوني وضربوني ذات يوم بقصد أنهم يقتلوني فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أر نفسي إلا في هذا المكان فقال الملك للحكيم: خذه لعندك وداوِه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك أحضره لعندي فأخذه الحكيم إلى داره وعالجه مدة من الزمان فشفي وختمت جراحه وتحسنت أحواله فأتى به إلى الملك ولما دخل عليه وتمثل بين يديه قال له الملك: كيف أنت الآن يا موحد؟ فقال: بحسب أنظارك الشريفة

شفيت وحصلت على دوام العافية فللّه در هذا الحكيم فإنه يستحق الإكرام والإنعام فمهما أنعمت علي فإني سأعطيه إياه فتبسم الملك من هذا الكلام وأنعم على الحكيم ثم التفت إلى المهلهل وقال: أعلمني بحالك وكيفية أحوالك وأشار الملك يقول:

قال استير حكمون الملك يا موحد استمع مني المقال
هات احكيلي على ما صار فيك ما عملت وما فعلت من أفعال
يا موحد أنت اليوم رجل مليح قرم فارس خيل ما أنت نذال
قول لي عن الجروح كيف صار ما سببهم قول يا سبع الرجال
ثم اعلمني على ما قد أقول يا زكي الأصل عن عم وخال
في بلاد إن أتوك الغانمين يضربون الشور لك معهم مقال
بعد هذا قل لنا عن صنعتك الذي تأكل منها رزقاً حلال

فلما فرغ حكمون من مقاله قال له الزير: اعلم أيها الملك الجليل وصاحب الفضل الجزيل إن سألت عن حسبي وعن نسبي ووظيفة أبي فإنه كان ملكاً من ملوك العربان ثم غدر به الزمان حتى صار يسوس الخيل وأنا اتبعته فمهنته مهنتي.

قال أبو ليلى المهلهل بي قصيد يا ملك حكمون يا حلو الخصال
في بلادي إن سألت عن الجلوس مجلسي في الوسط فوق أعلى الرجال
وإن سألت الشور كل الشور لي ما أحد يقدر يخالف لي مقال
وأوقع الحرب وضرب السيوف فالعذارى هللت فوق الجمال
والسيوف الحدب عاد لها هدير والقتول تلول عادت كالرمال
فذاك اليوم أنا عز الملاح ما مثلي في اليمين وفي الشمال
وإن أتاني ضيف أنا عز الضيوف واشبع الضيف من لحم الجمال
والفتى المعروف منجد يا أمير ابن وائل ذاك لي يا أمير خال
إن كنت تسأل يا ملك عن صنعتي صنعتي حاصود رؤوس الرجال
أما أبي فكان ذو قدر عظيم مال فيه الدهر يا حكمون مال
صار سايس بعد عزه للخيول بالكرامة بعد عزه والدلال

وأنا قد صرت سايس بعده أسوس الخيل ما مثلي مثال
وجروحاتي هي من عض الحصان قد ضربني برجله أربع نعال
قمت من كدري ضربته في حشاه راحت السكين تلعب للنصال
لأجل ذاك المهر سووا هل فعال وارموني بالذل مع كثر الخبال

فلما سمع حكمون هذا الكلام من الزير غضب عليه وقال: أنت أخبرتني قبل الآن أن رفاقك قتلوك والآن تقول إن الحصان ضربك فتكذب علي وتحتقرني فلو كنت من الأكارم ما جرت عليك هذه العظائم ثم صمم على قتله فشفعت له أكابر دولته ووضعه في الحبس وبقي هناك مدة سنة وكان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم فضج منه الناس وشكوه للملك وقالوا له: إذا كان هذا سايساً كما يقول فاجعله يسوس الخيل لأنه يقاسمنا طوعاً أو كرهاً وهذا أمر لا يطاق فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جبينه فاستدعاه الملك وقال له: هل أنت ماهر بسياسة الخيل؟ قال: نعم. فقال: سلموه خيلنا فإذا وجدناه ماهراً في ذلك أكرمناه.

قال الراوي: وكان كثيراً ما ينفرد بنفسه ويتذكر أهله وعشيرته وما هو فيه من الإهانة والأسر فيبكي ويقول: ليت شعري ما جرى على أهلي من بعدي لأن الأسير كما لا يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير وعلم نحرير فكيف من يكون مثل الزير الذي قهر الأبطال المغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير فإنه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام وقع في أسر بني إسرائيل الأنذال فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل فسلم أمره إلى اللّه وقعد ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الاقتناص وكان قد انتخب له فرساً من أطيب الخيول طويلة العنق صغيرة الرأس وأجود من القميرة فرس جساس فاعتنى بتربيتها حتى حالت فأخذها إلى شاطئ البحر وربطها هناك فخرج عليها حصان من البحر فشب عليها فراحت حاملة وبعد سنة ولدت له مهراً أدهم كامل الأوصاف ململم الأطراف فسماه الأخرج لخروج أبيه من البحر ثم فعل معها ذلك العمل في العام الثاني فولدت له مهراً آخر كأنه الأبجر حصان عنترة فسماه أبا حجلان واعتنى بهما دون باقي الخيل وكان يسوسهما في النهار والليل واستمر على تلك الحال مدة أربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين.

# حرب برجيس الصليبي مع اليهود

قال الراوي: واتفق في تلك الأيام أن برجيس الصليبي أحد ملوك الروم خارج مع أخيه سمعان في مائتي ألف من بلاد كسروان وتلك الحدود لمحاربة حكمون اليهودي وذكرت رواة الأخبار وعظماء الأمصار بأن مدينة بيروت كانت مزخرفة البنيان كثيرة الحوانيت والبيوت ولما اقترب برجيس بالعساكر النصرانية نصب خيامه في الأشرفية وكتب كتاباً إلى حكمون يقول فيه: من الملك برجيس بن ميخائيل إلى ملك بني إسرائيل أما بعد فإنك قد خالفت الشروط ولم ترسل لنا الخراج المربوط وقد مضى خمس سنوات وأنت تحاولنا بالكلام فاقتضى ذلك أننا قصدناك الآن بالأبطال والفرسان كأنها مردة الجان لا تخاف طعن الرماح ولا تكل من الحرب والكفاح فإن دفعت الخراج المطلوب من عشر مالك توقفنا عن حربك وقتالك وإلا وحق من أوجد الإنسان والمسيح الذي ولد بلا دنس خربنا ديارك وطفينا نارك وقلعنا آثارك وجعلنا الولايات اليهودية تابعة للأقاليم المسيحية فأسرع في رد الجواب قبل حلول العذاب ثم أنشد يقول:

على ما قال برجيس الصليبي ... كريم الوالدين أباً وجدا
شديد البأس ما بين البرايا ... على السادات دوماً مستجدا
أذل القوم في سيفي ورمحي ... أقد الشوش والهامات قدا
أنا قاصد لحكمون اليهودي ... فأعلمه بما قد استجدا
وأخبره بفرساني وجندي ... وما عولت أن أفعله جدا
أريد المال أرسله سريعاً ... وإن لم تمتثل أمري فتردا
وعشر الخيل مع عشر العذارى ... بنات قد زهوا وجهاً وقدا

ثم سلم الكتاب إلى القائد فرنسيس وأمره بسرعة المسير فامتثل القائد أمره وجد في قطع الفلاة إلى أن دخل البلد وقصد حكمون دون أحد فسلم

عليه وأعطاه الكتاب وتمثل بين يديه وكان عند حكمون جماعة من أحبار اليهود وهم يطالعون في التوراة والتلمود ولما فض الكتاب وقرأه وعرف حقيقة معناه احمرت عيناه وصاح على الرسول بصوت مثل الغول وقال: أهكذا يكتب لي برجيس يا خبيث يا تعيس فلولا العار يا ابن الأنذال لكنت قطعت رأسك وأخمدت أنفاسك فاذهب وقل لمولاك أن يستعد للحرب والعراك فإني لا أهابه ولا أحسب حسابه فخرج فرنسيس من بين يديه وهو ينفض غبار الموت عن كتفيه ثم صاح الملك حكمون على أخيه صهيون ووزيره قسمون وقال لهما: استعدا للقتال وفرقا السلاح على العساكر والأبطال فقد أتتنا العساكر المسيحية والأبطال النصرانية وقد عسكروا في الأشرفية فأجاباه إلى ما أمر وجهز العساكر وفرق عليهم السلاح ولما بلغ الملك برجيس كلام حكمون صار كالمجنون وعول ثاني يوم على الحرب والصدام وفي الصباح استعد حكمون للحرب والكفاح فخرج بالعساكر والعدد وحوله الكهنة والأحبار وهم يتلون التوراة والأسفار أملاً بالفوز والانتصار وكان الملك برجيس قد ركب في ذلك النهار بذلك الجيش الجرار وتقدم طالباً الأسوار بقوة واقتدار وعلى رأسه البيارق والصلبان ومن حوله القسس والرهبان وهم يتلون الإنجيل بالتنغيم والتهليل.

ولما التقى العسكران تقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتقت الفرسان النصرانية والأبطال الإسرائيلية في تلك البرهة وهجموا هجمات قوية وتضاربوا بالسيوف المشرفية وكانت الأمة النصرانية فتكت بالعصبة العبرية وأذاقتها من الأهوال أعظم بلية وقتلت منها مقتلة عظيمة ورجع حكمون وهو يأسف ويتلهف على ما حل بعسكره من الويل والتلف ودخل إلى البلد مع الجيش وأغلق الأبواب وقصد القصر وهو خارج عن دائرة الصواب ونزل برجيس خارج المدينة وكان قد امتلك ذلك النهار ثلاث قلاع حصينة وكان المهلهل قد سمع صياح القوم فسأل عن الخبر فأعلموه بواقعة الحال فتاقت نفسه إلى القتال ومصادمة الأبطال فأخذ القصعة بيده وصعد إلى السور ليشاهد تلك الأمور وكان ذلك المكان بقرب قصر حكمون فنظر القوم وهم يتقاتلون فكان كلما نظر النصارى غلبوا أو ظفروا يقول لليهود: تقدموا ولا تنكسروا وكان يهدر كالرعد القاصف أو الريح العاصف وهو راكب على الحيط كما يركب الحصان ويضرب برجليه ويصيح على الفرسان واستمر على تلك الحال إلى

أن رجع حكمون إلى البلد وهو في غم ونكد وكان لحكمون ابنة كالقمر المنير اسمها استير نظرت أفعال الزير من الشباك فتعجبت من أفعاله وغرائب أعماله فلما رجع أبوها سألته عن حاله وما جرى له في قتاله فأعلمها بواقعة الحال وانتصار النصارى في القتال فعند ذلك أخبرته استير بما رأته في ذلك اليوم من أعمال الزير وقالت: إن كانت أعماله صحيحة فإنه يكسر هذا العسكر ويذيقه الموت الأحمر ثم أشارت تقول:

تقول استير فاسمع لي كلامي نظرت اليوم في عيني العجائب
نظرت اليوم من هذا الموحد فعالاً قد تعيد الرأس شايب
فلما دقت طبل النصارى وقد هجمت عساكرهم تحارب
والتقت العساكر بالعساكر وراح السيف يعمل في المناكب
فقد أبصرت أحوال الموحد غرائب قد فعلها مع عجائب
ركب للحيط سواه حصانه كأنه يا أبي قاصد يحارب
ويزعق ثم يلكز في كعابه إلى أن جرى دمه سكايب
يهدر مثل ليث أروع ترج الأرض منه والكتايب
يريد الحيط يطلع فيه يغزي وقلبه للقا والحرب طالب
إذا ولت رجالك قال باطل وإن ولت عداك قال صائب
وينخي الناس واحد بعد واحد يشجع وهو للحيط راكب
فهذا قد نظرته اليوم حقاً من الصبح إلى وقت المغارب
فلا أدري أهو عاقل صميدع ولا أدري أهو مجنون خائب

فلما فرغت أستير من شعرها ونظامها وفهم أبوها فحوى كلامها أراد أن يستدعيه إليه فقالت: من الصواب أن يركب أخوك نهار غد ويقاتل العدا وأنت تبقى في القصر فلعله يفعل كما فعل بالأمس فتشاهد أعماله وتختبر أفعاله فليس الخبر كمشاهدة النظر فاستصوب كلامها وبات تلك الليلة قلقاً ولما أصبح الصباح أمر أخاه أن يركب بالعساكر ويخرج لقتال النصارى مثل الأسود فاشتبك الجمعان وعلا صياح الأبطال وهمهمة الرجال واشتد بينهم القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال فلما سمع الزير التهب قلبه بنار الاشتعال فصعد على السور وهو حزين النفس وفعل كما فعل بالأمس وكان كثيراً ما

يقول يا لثارات كليب من جساس المخذول وهو ينخي القوم ويقول: اليوم ولا كل يوم وكان حكمون ينظر إليه مع ابنته فتعجب من فعله وهول صوته فأمرها أن تناديه ليحضر أمام عظمته فنادته فالتفت إليها ولباها وذهل من حسنها ومرآها فقالت له: أبي يريدك أن تحضر إليه فانزل واصعد إلى القصر فصعد ودخل على الملك وسلم عليه وقبل الأرض بين يديه فقال له حكمون: إن كنت قادراً على ما تقول وأنك من الفرسان الفحول فانزل وقاتل عنا في هذا النهار المهول فإن لنا عليك جميلاً وإفضالاً فإن كسرت الأعداء بلغناك الآمال وأغنيناك بالمال وأطلقناك من الأسر والاعتقال.

فأمر الملك أن يعطوه جواداً من أطايب الخيل ودرعاً وسيفاً فأتوا له بجواد فقال لهم: هذا لا يحملني ثم اتكى عليه بيده فكسر أضلاعه فأتوا بآخر ففعل به كذلك وما زال على تلك الحال حتى قتل عشرة خيول فتعجب الملك من قوة بأسه وشدة مراسه ثم أتوا له بعدة حرب وجلاد ففعل كذلك إلى أن أتوه بعدة حرب الملك حكمون فلبسها وكانت من أحسن العدد واعتقل بالسيف المهند وركب على ظهر حصانه الأخرج الذي كان ينتظر منه الفرج وأخذ في يمينه الرمح الأسمر والتفت إلى حكمون وقال: اليوم تنظر فعالي وتعاين حربي وقتالي وتذكرني على الدوام أيها الملك الهمام ثم إنه لكز الحصان وقوم السنان وانطلق إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من حجر الصوان وقد هان عليه الموت تحت أرجل الخيل عند بلوغ القصد والمرام وكانت النصارى قد كسرت اليهود وفتكت بهم فتك الأسود فلما رأى المهلهل تلك الحال استعد للحرب والقتال وتقدم إلى صهيون أخي الملك حكمون وقال: شدوا عزمكم وقاتلوا خصمكم ثم خاض في المجال وطلب الميسرة في الحال وقاتل الأبطال فمدد أكثرها على الرمال وتأخرت عنه الرجال ورأت النصارى تلك الفعال فاعتراها الانذهال وهجموا عليه من اليمين والشمال فأبلاهم بالذل والويل وقتل جماعة من فرسان الخيل وكان كلما كثرت عليه الكتائب وضايقته العساكر والمواكب فتذكر أخاه كليب الأسد الغالب فهجم هجوم السباع ولا يخاف ولا يرتاع فتأخرت عنه الفرسان وتوقفت عن قتاله الأقران وكان الملك برجيس من فرسان المعارك فلما بلغه ذلك نما غيظه وزاد وهجم بالعساكر والأجناد طالباً ساحة الميدان ومن حوله القسوس والرهبان وعلى رأسه الرايات والألوية ولما اقترب من تلك الناحية وقعت عينه على

صهيون أخي الملك حكمون فتقدم إليه وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً فعند ذلك ضجت طوائف اليهود لما رأوا أميرهم مفقوداً فاستغاثوا بالتوراة والتلمود فالتقاهم برجيس كالنمرود وقتل منهم كل فارس معدود.

وكان المهلهل يقاتل الفرسان الصناديد ويمددها على وجه الصعيد فلما رأى طوائف اليهود متأخرة بعد أن كانت ظافرة وهم يصيحون ويندبون على فقد صهيون أخذته الغيرة والحمية فقصد الملك برجيس فالتقى بأخيه سمعان وهو ينخي الأبطال والفرسان فهجم عليه هجمة الأسد وضربه بالسيف المهند ألقاه على وجه الأرض ممدداً فلما قتل سمعان حمل جيش النصارى على الزير من كل مكان ودقت النواقيس وحمل الملك برجيس وتبعه كل أسقف وقسيس ولما رأت اليهود أفعال المهلهل أيقنت ببلوغ الأمل وارتدت إلى الأمام بعد ذلك الانهزام والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقوا عن بعضهم البعض ونزلت كل قبيلة في ناحية من الأرض وقد صعب على الملك قتل أخيه سمعان وندم على مجيئه إلى تلك الديار وكذلك صهيون فكانت مصيبة عظيمة على الملكين وداهية جسيمة على الفريقين.

ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفرسان واصطفت العساكر وانقسمت إلى ميامن وميامر فتقاتلوا بالرماح والخناجر والسيوف البواتر فكان الزير كالأسد الكاسر وجرى للأبطال في ذلك اليوم من الأهوال ما يشيب رؤوس الأطفال واستمروا على تلك الحال وهم في أشد قتال وخصام عشرة أيام على التمام وكان الزير قد فتك فتكاً عظيماً وقتل من النصارى عدداً جسيماً فلما رأى الملك برجيس ذلك خاف من الوقوع في المهالك لأنه كان من الملوك الكبار أصحاب السطوة والاقتدار وأمره نافذ في جميع الأقطار فخاف من الانكسار والوقوع بيد المهلهل الجبار فجمع أركان دولته ووزراء مملكته وعقدوا بينهم ديواناً فاستقر رأيهم على المصالحة وتوقيف الحرب وأن يرحلوا من تلك الأوطان ويبقوا مع حكمون كالأصحاب والإخوان على طول الزمان ثم إن الملك برجيس أرسل إلى حكمون بعض وزرائه المعتبرين وأعلمه بذلك وأن يأتيه بالخبر اليقين فسار الوزير للملك حكمون وأعلمه بواقعة الحال ففرح حكمون وباقي الأمة العبرانية لأنهم كانوا

يخافون سطوة ملك النصرانية فأجابه إلى المطلوب وحمد اللَّه الذي أقاله من غوائل الحروب وتم الصلح والوفاق ورجع برجيس من تلك الآفاق بمن معه من الرفاق بعد أن رتب على الملك حكمون مالاً يدفعه كل سنة إلى خزينة الملك وعظمت منزلة الزير عند حكمون وقال: مثلك تكون الفرسان فأنت اليوم عندي كالولد وأعز من الروح في الجسد فلولاك كنت في حال تعيس واستولى علينا الملك برجيس وكانت الأميرة أستير قد شاهدت أفعال الزير فأثنت عليه ومال قلبها إليه وقالت: لا عدمناك أيها النحرير فإنك تستحق الإكرام والتقدير وكان الملك قد مال إليه كل الميل فقدمته على جميع فرسان الخيل ورفع منزلته على الكبير والصغير ولقبه بالأمير وأنعم عليه بنيشان من الماس ليمتاز على كبار الناس وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه على سفرة الطعام والشراب.

ولما فرغوا من الأكل وشرب المدام قال له الملك: تمنّ علي أيها الأمير والسيد الخطير فمهما طلبت أعطيناك إياه بدون تأخير فطلب الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الأخرج وأعلمه ما بنفسه وطلب منه أن يجهز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا ومن هناك يسير وحده إلى مرج بني عامر محل إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته فلما عرف حكمون أنه المهلهل زاد مقامه عنده وقال له: هذي بلادي أمامك وأموالي بين يديك فأقم عندنا طول عمرك فإنا واللَّه لا ننسى جميلك ومعروفك فقد أخذت بثأري وطفيت من العدا لهيب ناري عند ذلك أهداه الحصان الأخرج وأعطاه السيف والرمح وعدة الحرب وجهز له مركباً من أحسن المراكب وأمر القبطان بمداراته وامتثال أوامره وأنه بعد أن يصل إلى حيفا يرجع حالاً ثم سار معه حكمون إلى المركب مع أكابر قومه وقال له عند الوداع اللَّه يبلغك آمالك فلا تقطع عنا أخبارك فسلم المهلهل ودعا له بطول العمر ثم رجع حكمون إلى المدينة وسافر المركب بالمهلهل وفي اليوم الرابع أشرفت السفينة إلى ميناء حيفا ألقت مرساها ونزل المهلهل إلى البلد وأبقى الحصان في المركب وأمر القبطان أن يحتفظ عليه لحين الطلب ومن هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى به ابن ناصر وهو حافي عريان وكان من الأعيان ومن أصحاب الزير فأقبل إليه وسلم عليه فرد طراف السلام ثم إنه عرفه بنفسه وأخبره بما جرى عليه أولاً وآخراً فقال: أهلاً وسهلاً بقدومك علينا فواللَّه كنا قطعنا الأمل مناك

فالحمد للَّه على اجتماعنا فقم الآن بنا إلى ربعنا لتنظر أهلك لأنهم دائماً في ذكرك فقال: قصدي أذهب إلى حي بني مرة وأنظر باقي قومنا الذين التجؤوا إلى جساس فسر معي إلى هناك فسار ناصر معه وهو فرحان جداً في مسيرهما حتى وصلا إلى حي بني مرة فالتقيا بالأمير سالم المهيا قاصداً الصيد مع جماعته ولما اقترب سالم من المهلهل ونظره حن قلبه إليه فحياه وجعل يتأمل فيه ويقول: واللَّه من يوم غاب حامينا فقدنا عزنا وما عدنا أبصرنا قامته إلى اليوم ثم دمعت عيونه فقال الزير: كيف تبكي عليه وأنت ملتجئ إلى عداه فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر جواده ووقع عليه فاعتنقه المهلهل وطيب خاطره وقال لهم: ابقوا في مكانكم وعندما تسمعون صرير السيوف في أعناق بني مرة تفعلون ما يجب عليكم فعله فساروا في سرور وأفراح يعلم بعضهم البعض وأما الزير فإنه سار وطراف متنكرين فدخلا إلى حي جساس وقت المساء فوجدا الحي في دق طبول ونقر دفوف وأمور على مسرات وأفراح فقال المهلهل: ما عسى أن يكون هذا ولما اقترب من صيوان جساس وجده غاصاً بالناس وجساس جالس في الصدر وحوله الأكابر والأعيان والمولدات تدق بالدفوف والمزاهر ثم حضر العبيد بسفرة الطعام فقام جساس إلى المائدة وتقدمت بعده الأمراء وجعلت تتوارد الفرسان وتتزاحم بعضها على بعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس وجلس بقرب جساس وأخذ يتناول من أنواع الأطعمة فلما رآه جساس أنكره واستعظم جثته وهو يأكل أكل الجمال فقال له: ادع لي يا شيخ فقال: إنني دائماً أدعو لك ولست بناسيك على طول الزمان فازداد جساس خوفاً وارتجفت أعضاؤه ولما انتهى من العشاء أمر بإحضار الرمل وضربه في الحال ورسم الأشكال فظهر له الكيس واحمرار وأنه قادم عليه أيام منحوسة ويظهر رجل قوي يذيقه الأهوال فتأكد عنده أن ذلك الرجل هو الزير لأنه لا يوجد له عدو غيره فالتهب قلبه بنار وصاح بملء رأسه يا ستار فقال له إخوته: ما أصابك يا أمير فأنشد يقول:

قال جساس ابن مرة في بيوت ... اسمعوا يا إخوتي أهل الوفا
ضاق صدري وامتلأ في هموم ... والقلق والهم ضارب بالحشا
جبت تخت الرمل قد حررته ... حتى أرى ما هو هذا البلا
وجدت الجد آت عن قريب ... صاحب البطش ما بين الملا
ورأيت الجواد له بيت ضد ... والجماعة شكلهم واقع حدا

ما عاد لي عقل لهذا الرمل قط حرت فيه اليوم يا أهل النها
لو يصح القول قلت الزير جا ها هو جالس بين الأمراء

فلما فرغ جساس من شعره وفهم الزير الطوية عرف المقصود فوضع يده على سيفه حتى إذا قال جساس اقبضوا عليه يفتك به ويعدمه الحياة ومن كثرة ما جرى على جساس من الغم والوسواس ترك ما كان عنده من الناس ودخل على الحريم خوفاً من أمر يأتي فلما رآه المهلهل فعل ذلك قال: لا بد من قتله إن لم يكن اليوم فغداً ثم خرج من الصيوان مع الأمير طراف وسارا قاصدين الأوطان فوصلا إلى وادي الشعاب ودخلا إلى الخيمة التي فيها بنات كليب فسمعت ابنة كليب اليمامة صوته فقالت: من أنت وما هو اسمك؟ فلما سمع صوتها عرفها فتقدم إليها فوجدها وشقائقها بثياب السواد فتقطع قلبه وهطلت عيناه بالدموع وقال: أتقبلون الضيف يا بنات الأماجيد؟ قالت: مرحباً بك فإننا أول من ضاف ولكن جار علينا الزمان فأذلنا بعد العز والجاه وصرنا في حالة يرثى لها فاقصد يا شيخ محل الوليمة وهو المكان الذي تدق فيه الطبول فتحصل على بلوغ الآمال فقال: باللَّه عليك يا صبية أن تحكي لي واقعة حالكم فقد جرحت قلبي بهذا الكلام فقالت اليمامة: لقد ذكرتنا بمصايبنا وما جرى فجلس المهلهل هو وطراف وجلست هي بجانبهما ثم إنه عرفها وشقائقها بنفسه وأنه هو عمها الزير وأنه نجا وعاد سالماً لينتقم من أعدائه فصاحت بصوت عالٍ هذا في الحلم أم في اليقظة؟ ثم وقعت عليه وشقائقها يقبلونه وقلن: الحمد للَّه الذي أرانا وجهك بخير وعافية فواللَّه قد زالت أتراحنا وتجددت أفراحنا وسمع أبو شهوان عبد الزير هذا الخبر فدخل عليه ووقع على قدميه لأنهم كانوا يظنونه مات فكانت تلك الليلة من أعظم ليالي الأفراح والمسرات وبعد ذلك جلسوا يتحدثون فقالت اليمامة: باللَّه يا عماه أن تعلمنا بقصتك وما جرى في سفرتك فقص عليهم ذلك الخبر وما سمع وأبصر وختم كلامه بهذا القصيد:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل عيوني دمعها جاري بكاها
بكيت دماً على ما صار فينا ليالي السعد ما عدنا نراها
عدمنا فارس الهيجا كليبا عقاب الحرب إن دارت رحاها
دهتني آل مرة جنح ليل لتقتلني وتشفي ما دهاها

فكنت بخيمني ملقى طريحاً ثلاثة آلاف دزتني قناها
وجابوني لعند ضباع أختي وألقوني طريحاً في حداها
وقالوا يا ضباع خذي أخوكي أخذنا روحه قيمي عزاها
فألقتني بصندوق مزفت وأرمتني بوسط البحر ماها
وساقتني مياه البحر حالا إلى بلد اليهود على رباها
وجابوني لحكمون اليهودي أجل مللوك الأرض جاها
فداواني وعالجني سريعاً فزالت كربتي مما دهاها
بقالي أنا ثمان سنين غائب وزال الشر عني مع عناها
سألت اللَّه يحفظكم جميعاً على ما طالت الدنيا مداها

قال الراوي: وكانت ليلة عند بنات كليب من أعظم الليالي وحضر تلك الليلة جميع أصحاب الزير ففرحوا وانشرحوا بقدومه وهنؤوه بالسلامة فقال لهم: من الأوفق أن تكتموا أمري لبينما أتجهز لقتال الأعادي وأحضر جوادي ثم أعلمهم بخبر الحصان وأنه أبقاه في المركب عند القبطان لبينما يكون شاهد أهله وأقاربه ولما انتصف الليل ودعهم وسار قاصداً شاطئ البحر.

هذا ما كان منه وأما مرة أبو جساس فكان من عادته أن يذهب كل يوم إلى ساحل البحر ويتجسس الأخبار ويعود في آخر النهار فاتفق أن عبدين من عبيده كانا قد نظرا المركب عند قدومه إلى ميناء حيفا فأعلماه به فاستأجر قارباً وقصد المركب وعند وصوله إليه وجد ذلك الجواد المذكور فاندهش من رؤياه فسأل القبطان عنه فقال له القبطان: هذا جواد للزير وقد حضر معنا من بيروت وسار لزيارة أهله من يومين ولم يكن القبطان يعلم ما هو جار بين القوم من العداوة والحرب ولما سمع مرة بخبر الزير وأنه عاد سالماً غانماً استعظم الأمر وتعجب ولكنه كتم الخبر وقال للقبطان: أتبيعني هذا الحصان؟ فقال: كيف أبيعه وهو مودع على سبيل الأمانة فقال: لا بد من ذلك إما أن تقبض ثمنه خمسة آلاف دينار أو آخذه منك بالقوة والاقتدار لأن ابني جساس ملك هذه الديار وبيدنا زمام الأحكام وما زال يلح عليه بالكلام إلى أن امتثل وأجاب خوفاً من أن يأخذه بالقوة والاغتصاب فقبض القبطان الدراهم وسار مرة بالحصان إلى عند ابنه جساس وهو كاسب غانم وأعلمه بواقعة الحال

وقدوم المهلهل إلى الأوطان ففرح جساس بالحصان لأنه كان من أجود خيول الأعراب ولكنه خاف من الغوائل وعلم أنه لا بد من تجديد الحروب بين القبائل فاجتمع بأهله وأعلمهم بالخبر وأن يكونوا على استعداد وحذر.

أما الزير فإنه عند وصوله البحر سار إلى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان فلما سمع هذا الكلام أراد أن يضرب عنقه بحد الحسام لكن توقف عن أذاه إكراماً لخاطر مولاه ثم أمره بالرجوع إلى عند الملك حكمون ليقص عليه الخبر ويطلب منه الجواد الآخر فامتثل القبطان أمره وأقلع من تلك الساعة حتى وصل إلى بيروت فأنزل الزير في قاربه وسار به إلى الملك حكمون الذي رحب به غاية الترحيب ثم أجلسه بجانبه وقام بواجبه وأشار يقول وعمر السامعين يطول:

قال حكمون بن عزرا في بيوت تشرح الخاطر وترضي السامعين
أنورت الدنيا علينا يا همام يا مريع الخيل إذا طلع الكمين
يا مهلهل أنت عز المحصنات أنت فخر للأناس الماجدين
إن كان يلزمك نجدة احكي لي حتى أسير بالجيش كله أجمعين
طيب قلبك يا مهلهل لا تخاف ثم اطلب يا ضيا عيني اليمين

فشكره الزير وأثنى عليه وأخبره بما جرى من فقد الحصان وأن السبب في حضوره سؤال خاطره الشريف بأن يعطيه المهر الثاني ثم أنشد يقول:

قد أتيت اليوم في قلب حزين على فقد مهري الأخرج الثمين
فإن شئت أعطني أخوه يا معز الجار يا ابن الأكرمين
لا أريد مال ولا كثرة نوال غير أبو حجلان مطلوق اليمين
يا ملك حكمون إن مالي كثير كل مال البر في يدي خزين

فتبسم حكمون وقال: مهما طلبت منا لا نعزه عليك وجميع أموالنا بين يديك وإننا لا ننسى جميلك ومعروفك على طول الزمان وإن أبا حجلان بعد رواحك من الأوطان أظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه أحد من السياس ثم طلب منه البقاء عنده عدة أيام ليستريح من متاعب الأسفار فاعتذر وقال: لا بد من الرجوع في هذا النهار فأعطاه حكمون الحصان فسار به إلى المركب وعند وصولهم إليها نزل بالجواد إلى المدينة فركب وقصد

أهله فاتفق في تلك الساعة أن رجلاً من قبيلة جساس أبصر الزير فعرفه وسار إلى عند جساس وأخبره بقدومه وقال: إنني خايف عليكم من سطوته لأنني شاهدته في هذا النهار مثل الأسد الكرار ثم أشار قائلاً:

يقول الشيخ يا أولاد مرة تعالوا واسمعوا لي يا فوارس
أبا جساس يا همام اسمع أيا ملك ويا أهل المجالس
إني كنت قرب البحر سائر رأيت خرج علي اليوم فارس
على أدهم أقب الضلع فارح وفوقه درع من بولاد لابس
وفي كتفه قنا أسمر مكعب بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فارس البيدا مهلهل مريع الخيل للأبطال داعس

فلما فرغ الشيخ من شعره ونظامه أجابه سلطان بن مرة بهذه الأبيات:

يقول السلطان بن مرة كلام الشيخ صادق يا فوارس
فإن كان أبو ليلى سيظهر يخلي دمنا مثل البواطس
ويسبي من قبائلنا عذارى ويترك أرضنا قفراً دوارس
ولا يقبل رجاء ولا عطايا ويطرحنا على الغبرا نواكس

فلما فرغ سلطان من كلامه وقع الخوف في قلوب القوم وأخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم وأما الزير فقد جد في المسير حتى وصل إلى دياره والتقى بأهله وأنصاره ففرحوا به وأتت إليه اليمامة وشقائقها وإخوة الزير وكل من في الحي نساء ورجال ووقعوا عليه يقبلون يديه وانتشرت الأخبار بقدومه إلى البلاد بين الكبار والصغار حتى ملأت الأقطار فأقبلت الأبطال والفرسان وتواردت إليه السادات والأعيان فسلموا عليه وامتثلوا بين يديه وهنوه بالسلامة فشكرهم وأثنى عليهم وترحب بهم وذبح لهم الذبايح وأولم الولائم ووعدهم بالمكاسب والغنايم وبعد أن أكلوا وشربوا أنشد عدي أخو الزير قائلاً:

يقول عدي أبيات فصيحة أتانا الزير والمولى عطانا
وكنا قبل ما يأتي إلينا بحال الذل في قهر حزانا
وجساس الردي عايب علينا يريد هلاك تغلب مع أذانا
أمرنا بأن نبقى جميعاً على طول الليالي مع نسانا

ولا نـركـب خـيـولاً صـافـنـات ولا نـحـمـل سـيـوفـاً فـي حـمـانـا
إلـيـنـا جـيـت يـا جـمـل الـمـحـامـل ويـا كـهـف الـعـذارى والأمـانـا
لـربـي الـشـكـر ثـم الـحـمـد دايـم إذا مـا جـئـتـنـا نـقـهـر عـدانـا
أيـا سـالـم فـانـهـض وشـد عـزمـك واركـب فـوق مـطـلـوق الـعـنـانـا
ونـركـب ثـم نـحـمـل فـرد حـمـلـة عـلـى أولاد مـرة فـي لـقـانـا
ونـتـرك دورهـم بـوراً وقـفـرا ونـقـتـلـهـم ونـأخـذ ثـأر أخـانـا

فلما فرغ عدي من كلامه تقدمت اليمامة لعمها وشكرت اللَّه على سلامته ودعت له بطول العمر فضمها الزير إلى صدره والتفت إلى من حوله وأنشد:

يـقـول الـزيـر أبـو لـيـلـى الـمـهـلـهـل ألا يـا بـنـات الـسـعـد جـاكـم
وأقـبـل سـعـدكـم والـشـر ولـى وراح الـشـر عـنـكـم لا عـداكـم
فـقـروا وابـشـروا مـنـي وطـيـبـوا إلٰـه الـعـرش قـد زول عـنـاكـم
ثـمـان سـنـيـن وسـط الـبـحـر غـائـب وبـالـي عـنـدكـم عـمـا دهـاكـم
وفـرج خـالـقـي هـمـي وغـمـي وخـلـصـنـي وجـيـت إلـى حـمـاكـم
وحـيـث أتـيـت زال الـشـر عـنـكـم ونـلـتـم يـا بـنـات مـنـي مـنـاكـم
غـداً جـسـاس أقـتـلـه بـسـيـفـي وآخـذ يـا بـنـات بـثـأر أبـاكـم
وأنـتـم يـا عـدي ويـا دريـعـان وبـاقـي اخـواتـي تـسـلـم لـحـاكـم
فـأتـوا بـالـصـوافـن واركـبـوهـا وهـبـوا مـسـرعـيـن ومـن مـعـاكـم
ودقـوا طـبـولـكـم يـا آل قـيـس وقـيـمـوا الـنـار فـي سـايـر حـمـاكـم
وخـبـونـي بـعـيـد عـن الـمـنـازل غـداً جـسـاس يـبـرز لـلـقـاكـم
فـلاقـوه عـلـى خـيـل ضـوامـر وإنـي سـوف أهـجـم مـن وراكـم

قال الراوي: فلما فرغ المهلهل من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الأتراح وأيقنوا بالنصر والنجاح وما زال بنو قيس يجتمعون وإلى المهلهل يتواردون حتى صاروا في جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والنزال فأطعموا الجوعان واكسوا العريان وأوقدوا النيران ورجع الحي كما كان.

هذا ما كان من الزير وقومه وأما بنو مرة فلما بلغهم الخبر وكيف أن بني قيس قد التموا بعد ذلك التفريق والشتات من جميع الجهات وهم في أفراح ومسرات اجتمعوا بجساس وقالوا له: لو لم يكن الزير قد ظهر لما كانت بنو قيس اجتمعت في هذه الأيام وخالفت أمرك ومراسيمك العظام فقال: كفوا عن هذا الكلام ولا يخطر لكم الزير على بال واستعدوا للحرب والقتال فاستعدت الفرسان الفحول وركبوا ظهور الخيول وتقلدوا بالسيوف والنصول ولقد أملوا بالنجاح وبلوغ الأمل وركب جساس حصان الزير الأخرج وسار بذلك الجمع الغفير ولما اقتربوا من حي بني قيس سمعت أبطال الزير دق طبولهم وصهيل خيولهم فهاجوا وماجوا فأمرهم الزير أن يتأهبوا للقتال ويلاقوهم في ساحة المجال فتبادروا في الحال وتقدمت الفرسان وركب الزير على مهره أبو حجلان وسبقهم إلى الميدان وكمن في بعض الروابي والتلال مع جماعة من الرجال ولما اقترب جساس من رجال بني قيس قال لهم: قد خالفتم أوامري وغركم الطمع فهجم عليهم بالرجال وأحاط بهم من اليمين والشمال فالتقوهم بقلوب كالجبال واشتد بينهم القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال ولكز الزير الحصان وتقدم إلى ساحة الميدان فشق الصفوف والكتائب ومزق بحملته المواكب وهو يهدر ويصيح من قلب جريح أبشروا يا بني بكر بالذل والويل فقد أتاكم المهلهل فارس الخيل وسترون ما يحل بكم من الويل على ما عاملتمونا به من سوء الفعال فقد أقسمت برب الأنام الذي لا يغفل ولا ينام إني لا أترك منكم لا شيخ ولا غلام ثم إنه صال وجال وضرب بالسيف الفصال وتبعته الفرسان والأبطال من اليمين والشمال فلما سمع جساس صوت المهلهل انقطع قلبه من الخوف والوجل ولكنه ثبت في الميدان خوفاً من الهلاك وأخذ يحث الأبطال والفرسان على القتال والثبات على لقاء الأعادي قبل الممات فثبتوا ثبات الجبابرة وقاتلوا قتال الأسود الكاسرة لكنهم لم يقدروا أن يثبتوا أكثر من ثلاث ساعات حتى انصبت عليهم البلايا والنكبات وبلوا ببلايا لا تطاق من سيف المهلهل فارس الآفاق فولوا الأدبار وركنوا إلى الهزيمة والفرار بعد أن قتل منهم عشرة آلاف فارس كرار وتبعهم الأمير جساس وهو في قلق ووسواس وغنمت بنو قيس منهم غنائم عظيمة ومكاسب جسيمة ورجعت إلى الديار بالعز والانتصار والبطش والاقتدار

وفي مقدمتهم الأمير المهلهل الجبار وهو مثل شقيقه الأرجوان مما سال عليه من أدمية الفرسان.

ولما وصل إلى المضارب بقواد المواكب لاقته بنات أخيه وجماعة من أقاربه وأهاليه فشكروه على تلك الفعال وقالوا: مثلك تكون الأبطال والفرسان فجلس في الخيام وجلست حوله السادات العظام وجبابرة الصدام فتحادثوا في الكلام وشكروا رب الأنام على بلوغ القصد والمرام وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد إلى المهلهل فارس الطراد وقالوا له: باللَّه عليك أن تنشدنا شيئاً من أشعارك لأن قلوبنا مشتاقة للوقوف على آثارك وما جرى لك في أسفارك فأنشد الزير يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل فكل مقدر لا بد يأتي
نزلت يا إخوتي وأبناء عمي بجنح الليل لا يدروا صفاتي
فقالوا ضيفنا شرطوا علينا فلا توقدوا النار في الفلاة
ولا نفزع ولو فزعوا علينا ولا نركب خيول الصافنات
تكافحت اليمامة مع حمامة وقالت عماه هيهات يأتي
فقلت لها لبيك جئتك أنا مرادي السباع الكاسرات
فجيت لعندها في قلب صامت وجدت عيونها متقرحات
فقلت يا يمامة ليش تبكي جرحت بالبكا قلبي وكلاتي
فعمك يا يمامة ليس مثله إذا ثارت حروب في الفلاة
أنا همي كراديس الفوارس إذا ما وهجت نار العداة
وجيت أنا على جساس رامح هرب مني وصاح أتوا العداة
وقال الزير أتانا يا بلانا وطلب ثأره بالمرهفات
فقولوا لابن مرة أن يغدي أتاه الزير ذباح العداة

فشكره أخواته وتقدم سالم المهيا إلى الزير وقبله بين عينيه وأنشد:

على ما قال سالم المهيا مهلهل جيت هذا اليوم يومك
وزال النحس والتوفيق أقبل وأضحى القطر يزهو في قدومك
ولما جيت يا زين الفوارس أزلت همومنا زالت همومك
فقم اركب عليهم يا مهلهل نهار وليل ما أحد يلومك

وخذ بالثأر من جساس حالا وافرج همنا واخلي همومك

قال الراوي: فلما فرغ سالم المهيا من شعره طابت قلوب الجميع وعادوا لما كانوا عليه من الفرح والمسرة أما بنو مرة فابتلوا بالذل والويل من حرب المهلهل فارس الخيل ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب المهلهل في مئة ألف بطل وطلب حرب القوم فالتقاهم جساس في ذلك اليوم وكان بمعيته مائتا ألف مقاتل ما بين فارس وراجل فانتشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الأهوال وقاتل المهلهل حتى استقتل فنكس الأبطال والفحول عن ظهور الخيول وقتل جماعة من الأعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم وشاع ذكرهم بين الأعارب والأعاجم فمنهم الأمير شهاب المكنى بالعقاب وغيره من السادات والأنجاب واستمر القتال على هذا الحال طول ذلك النهار فانكسرت بنو مرة أشد انكسار ورجع المهلهل بالعز والانتصار.

ولما كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالأبطال وتقاتلوا أشد قتال ولما تقابلت الصفوف وتبادرت المئات والألوف برز شاويش أخو جساس بين الصفوف ولعب برمحه بين الفريقين وطلب قتال المهلهل فانطبق عليه وحمل كأنه قطعة فصلت من جبل أو قلة من القلل فتطاعنا بالرماح وتضاربا بالبيض الصفاح وثبت شاويش أمام الزير ثبات الأبطال المغاوير لأنه كان من الفرسان المذكورة والأبطال المشهورة واستمر الاثنان نحو ساعة من الزمان وهم في طعن وهزل وجد وكان الأمير شاويش قد حتم على نفسه أمام السادات إما أن يهلك في ذلك النهار أو يظفر بخصمه ويعيش في عز وإقبال ثم صاح بالمهلهل وطعنه بالرمح قاصداً قبض روحه فالتقاها المهلهل بالدرقة فراحت خائبة بعد أن كانت صائبة ثم تقدم المهلهل وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وفي دمه جديلاً ثم هجم على الرايات وطعن في صدور الفرسان فقتل الرجال ومدد الأبطال في ساحة المجال وفتك فيهم فتك الأسود الكاسرة وفعل فعالاً تعجز عنها صناديد الجبابرة وفعلت قومه مثل أفعاله فقاتلوا القتال المنكر وأذاقوا الأعداء الموت الأحمر فلما رأى جساس ما حل بقومه استعظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب وازداد اكتئاباً على اكتئاب على فقد أخيه ليث الغاب لأنه يحبه محبة عظيمة ويوده مودة جسيمة فبكى وانتحب وولى يطلب الهرب وتبعته رجاله وأبطاله ورجع الزير بباقي الفرسان وهو مثل شقيقة

الأرجوان مما سال عليه من الدماء فالتقته اليمامة بالإعزاز والإكرام فنزلوا في الخيام مع السادات الكرام فأكلوا الطعام وشربوا المدام وكان في كل يوم يركب حسب عادته لحرب القوم فبلغ منهم غاية المنى وأبلاهم بالذل والعنا فلما طال المطال وعظمت على بني مرة الأهوال جمع جساس من يعتمد عليهم من الأبطال وقال لهم: ما قولكم في هذا الأمر العسير فقد حل بنا الهلال والتدمير وفقدنا كل سيد خطير وإن طال المطال لم نجد أحداً من الرجال؟ فقال سلطان: الرأي عندي أن نأخذ أختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة ونذهب إلى الزير ونقع عليه ونطلب منه الكف عن الحرب ونعطيه دية أخيه مهما طلب ونقيمه ملكاً على بلاد الشام وندفع له الجزية في كل عام. فقال جساس: ومن يذهب ليقص هذا الكلام؟ فقال: أنا وأنت يا أخي فتبسم جساس وقال: أسمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فيزحف إليه على قدميه.

فقال سلطان: أنا أذهب إليه بنفسي لأن بيني وبينه مودة قديمة ثم نهض في الحال وتأهب للمسير والترحال وأخذ معه أخته الجليلة وبعض نساء القبيلة وقصد حلة المهلهل حتى وصل إليه وقال له: باللَّه عليك أيها السيد أن تصفح عنا فقد أهلكت رجالنا ولم تبق على أحد منا وقد أتيتك الآن مع أختي الجليلة وأكابر نساء القبيلة نقع على ساحة أعتابك ونطلب من جنابك كف الحرب ونبلغك غاية الأرب من الفضة والذهب ونقيمك ملكاً على هذه الديار ونكون طوعاً لك على مدى الأعصار لأنك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ثم أنشد يقول:

قال سلطان بن مرة في بيوت ... يا مهلهل استمع مني القصيد
ليت عمرك يا مهلهل ألف عام ... يا حماة البيض في اليوم الشديد
فاعف عنا يا سياج المحصنات ... ليت عمرك كل يوم في مزيد
نحن منك وأنت منا يا همام ... كلنا أولاد عمك يا رشيد
فاعف عنا ثم دعنا في حماك ... تحت ظلك عيشنا يبقى رغيد

فلما فرغ سلطان من نظامه أجابه المهلهل:

اسمع يا ابن عمي ما أريد ... افهم فحوى كلامي في قصيد
ليس لي ذنب في ذي الأمور ... وأنا في حقكم لست عنيد

غصب عني يا سياج المحصنات ليت عمرك يا ابن عمي في مزيد
كل الذي صار عليكم يا رجال من يمامة بنت أختك في الأكيد
اليمامة كل يوم تقول لي خذ بثأري أيها البطل العنيد
فإن عفت عنكم أنا أعفو كل قولي صادق واللَّه شهيد
وإن أبت لا أخالف قولها إنني عن أمرها لست أحيد

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه قال لسلطان ومن حضر معه: أنا لا أكف عن الحرب ولا أرفع عنكم السيف إلى يوم القيامة أو أن تمنعني اليمامة فاذهب إليها وخاطبها بما خاطبتني به أمام هؤلاء الأعيان فعسى أن تجيب طلبك فقصد سلطان اليمامة مع أخته الجليلة وبعض نساء القبيلة وقالوا لها: أما كفى يا بنت الأكارم والوفا فقد قتلت رجالنا وهلكت فرساننا وساءت أحوالنا وصارت عبرة لمن اعتبر ومثلاً بين البشر فأجابتها اليمامة أنا لا أصالح حتى لا يبقى فيكم أحد وإن كان عمي قد عجز عن قتالكم فأنا أنوب عنه وألتقي بأبطالكم ثم إنها ختمت كلامها بهذا النشيد والنظام:

قالت يمامة من ضمير صادق يا جليلة اقصري عني عناكم
أنت وخوالي وكل عشائري لا تزيدوا لفظكم ولا لغاكم
قتلتم الماجد كليب والدي غدراً ومالـه ذنب معاكم
جساس طعنه من قفاه بحربة دعاه إلى الغبرا قتيل حداكم
أنا وإخوتي بقينا بذله نمسي ونصبح ولا ننسى بلاكم
أنا لا أصالح حتى يعيش أبونا ونراه راكب يريد لقاكم

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت مع أخيها وباقي النساء إلى الحي بدون إفادة وأخبروا الأمير جساس بواقعة الحال فاعتراه الخوف والانذهال وأيقن بالهلاك والوبال فقال أخوه سلطان وكان ذا مكر واحتيال: إني سأهلك الزير أيها الأمير ونقوده إليك عند الصباح كالبعير فقال: وما هو الفعل؟ فأجاب إني أقصد الميدان بجماعة من الأعوان وأحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيهم حتى يخفوا عن عيون العساكر فإذا كان الصباح والتقى العسكر بالعسكر تبرز أنت والزير وتكون عارفاً بهم فتقوده إليهم وتتم الحيلة فيسقط ويهلك في هذا الشرك فنتخلص من شره ونبلغ ما

نتمناه فاستصوب جساس هذا الرأي واستحسنه وخرج في ذلك الليل مع أخيه سلطان وجماعة من العبيد والأعوان إلى ذلك المكان فحفروا ثلاث حفاير عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى اختفت عن العيون ثم رجعوا إلى أماكنهم وهم مسرورون وباتوا تلك الليلة على مقالي النار وهم ينتظرون طلوع النهار هذا ما كان من هؤلاء أما الزير البطل النحرير فإنه ركب في الصباح بفرسان الكفاح وقصد ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعسكر ثم انفرد بنفسه نحو تلك الحفاير وأخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد فرآه بعض الفرسان وهو يجول في ذلك المكان على ظهر الحصان فأعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له: إن خصمك ظاهر للعيان وهو في تلك الناحية من الميدان فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الأمل فلما اقترب منه ابتعد عنه فتبعه المهلهل على الأثر فسقط في إحدى الحفر فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقي الناس بقصد أن يطعنوه ويهلكوه ويعدموه فللَّه در الحصان أبو حجلان فإنه كان من عجائب الزمان وغرائب الأوان أخف من الغزلان وأسبق من البرق عند اللمعان فإنه عندما وقع ضرب بحوافره الأرض فارتفع حتى صار بين الفرسان بالميدان فرجعت الخيل مدبرة عنه فاستعظم الزير تلك الأمور المنكرة وغاب عن الوجود حتى صار حاضراً بصفة مفقود ورأى جساس ينخي بأبطاله ويصيح على رجاله فتقدم نحوه بالجواد ليشفي غليل الفؤاد فاتفق المقدر وقوعه في الحفرة الثانية فوثب به الجواد وانتصب أسرع من لمح البصر حتى صار على وجه الأرض فانقلبت عليه العساكر بعضها على بعض فزاد بالزير الكدر وطار من عينيه الشرر فقصد الأمير جساس دون باقي الناس ليقتله ويعدمه الحواس فكبى به الجواد في الحفرة الثالثة وكانت عليه أقبح حادثة إذ كان جواده قد أعياه التعب وضعف قواه وانحل منه العصب حتى لم يعد يمكنه أن يفعل كما كان يفعل وكذلك الأمير مهلهل فقد انهد حيله وطاش واعتراه الخوف والارتعاش وأيقن بالهلاك والممات وآيس على نفسه من الحياة فكانت حيلة عظيمة وداهية جسيمة فلما بلغ جساس الأمل ونجح بذلك العمل أيقن ببلوغ الأرب وصاح من شدة الطرب على باقي رجاله ومن يعتمد عليهم من أبطاله ويلكم أدركوه واطمروه واقتلوه فإن تخلص هذه المرة من الحفرة لا تتأملون بنجاح أو نصرة فقصدوا ذلك المكان وكانت أيضاً بنو تغلب قبيلة الزير فارس

العجم والعرب أقبلت فرسانها ورجالها وانتشب بين القوم قتال لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم وكان القتال بجانب تلك الحفر ولما عظمت الأهوال وتكردست جثث القتلى على الأرض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال هجم جساس أمام الناس وقال للفرسان والأبطال والشجعان: أدركوني في هذا النهار واسعفوني في التراب والأحجار واردموا هذه الحفرة في الحال وأنا أرد عنكم هجمات الرجال فتقدموا على عجل وبادروا بإجراء هذا العمل غير أنهم لم يبلغوا الأمل فإن إخوة الزير الفرسان المشاهير هجموا عليهم من الشمال واليمين وضربوا فيهم بالسيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار وكان الأمير مرة بجانب تلك الحفرة فرآه عدي أخو الزير فتقدم إليه وقبض عليه وألقاه في تلك الحفرة بالعجل وقال: خذ عمك يا مهلهل ولما صار بالقاع ضربه بالسيف فقتله ثم أخرجوا الزير بالقوة والاقتدار فعند ذلك انشرحت من بني تغلب الصدور وزالت عنهم الغموم والكروب وأيقنوا بالتوفيق والنجاح والفلاح وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا أعداءهم بأسنة الرماح ومال الزير على القوم ونادى اليوم ولا كل يوم وفي الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جوانب الآفاق من ضرب السيوف الرقاق وطعن الرماح الدقاق وجمدت من القوم الأحداق وفعل الزير في ذلك اليوم فعالاً لا تطاق وما زالوا في أشد قتال إلى وقت الزوال فدقت طبول الانفصال فرجعت بنو مرة بالويل والحسرة والمهلهل بالنجاح والنصر فنزل عن ظهر الجواد وخلع آلة الحرب والجلاد وجاءت السادات وأكلت الزاد ولما جلس في الصيوان صاح على عبده أبي شهوان بإحضار المدام إلى الديوان فأحضره بالعجل فتناول منه المهلهل ومن حضر في ذلك المحفل فعند ذلك تذكر ما جرى له في ذلك اليوم المهول فأنشد:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... فدمع العين هطال عمانا
لقد قتلوا أولاداً لعمي ... وقالوا ما وراه إلا جبانا
ولا يدرون بأسي واقتداري ... فقطعتهم ولم أخش الزمانا
أتتنا في كليب أولاد مرة ... أتونا داخلين على نسانا
وقالوا كف عنا يا مهلهل ... فقد حكمت سيفك في أذانا
فاطلب ما تريد اليوم منا ... واتركنا فقد صرنا حزانا

فقلت لهم روحوا لليمامة رضاها اليوم أحسن من رضانا
قتلنا في كليب ألوف قوم فما فيهم ردي ولا جبانا
قتلنا من بني مرة أمارة ملابسها ثياب الطيلسانا
فراحوا الكل قد وقعوا عليها وقالوا عمك أرسلنا عيانا
فقالت اذهبوا أولاد مرة فهذا القول ضحك في لحانا
فأنا لا أصالح في كليب إلا أن نراه على الحصانا
وقد حفروا لي جملة حفاير وغطوها وقالوا قد كفانا
فركبوا خيولهم وأتوا حداها وقالوا: قد أتانا قد أتانا
وقف جساس ما بين الحفاير هجمت عليه أطعنه السنانا
فولى هارباً من هولي وحربي ومرة قد قتلناه عيانا
فكوني يا يمامة في انشراح وحفظ دايم طول الزمانا
فسوف أبيد جساساً بسيفي وكل سفيه يبغي أذانا

فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره جميع أقوامه ولما كان الصباح رجعوا إلى ما كانوا عليه من الحرب والكفاح وما زالوا في قتال وصدام عدة أيام ولما طال الأمر اتفقوا على توقيف الحرب وأخذ هدنة شهرين لراحة الفريقين فاتفق في بعض الأيام بينما كان الزير خارج الخيام ومعه بعض الخدام وإذا برجل يقود مهراً أدهم كامل الصفات فاستحسنه الزير غاية الاستحسان وقال لقائده: ما هو أصل هذا الحصان؟ فقال: يا حلو الشمائل إنه من الخيول الأصايل وقد أتيت به من أبعد الحلل لأهديه للأمير مهلهل فتعجب الزير من هذا الاتفاق الغريب وقال: لقد نلت مرادك من قريب فأنا المهلهل الذي أنت قاصده فأخذ منه الجواد وأمر له بألف دينار وبلغه مقاصده فدعا له بطول العمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء وسار من يومه إلى قومه فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله على جميع الخيول والجياد واتذكر الزير مرة أنه التقى برجل اختيار وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام وراءها كر ابن سبعة أيام وهو يرضع خلفها فلما رآه المهلهل أعجبه فقال للشيخ: أتبيع هذا الكر؟ فقال: نعم فقال: بكم؟ قال الشيخ: ليس على الكريم شرط فأعطاه الزير ماية دينار وأخذه منه وسلمه للسايس فرباه مدة أربع سنوات ثم

دخل الزير ذات يوم إلى الإسطبل فرأى الكر وهو متعافى فأمر السايس بإسراجه وأن يرمي عليه عدة ولجاماً فأخرجه وأسرجه له ولجمه فركب عليه الزير وساقه إلى الأمام فرجع إلى الوراء فرده إلى اليمين فراح شمالاً واجتهد أن يمشيه فما كان ليمشي معه فغضب ولكزه برجله في الركاب فتضايق المشؤوم من فعاله وضرب الأرض بنعاله ثم ضرط ضرطة عظيمة من شدة الوجع كأنها صوت مدفع فغضب المهلهل وضربه بالسيف أورثه العدم ودخل إلى صيوانه واجتمع بنوابه وأعيانه وقال: لقد جربت دنيء الأصل وأكرمته فضاع فعلي معه وما قدمت هذا المثل أيها السادة الأخيار إلا لتعلموا أن الحمار يقتني الحمار ثم إنه ركب ذلك الحصان فوجده من عجائب الزمان فزاد انشراحه فيه وأمر السايس أن يسوسه ويداريه ثم أنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل بيوم الشعر ما تغلى بمالي
أيا غادي رضيت الخيل تركب تعالى واسمعن مني مقالي
جميع الخيل للحمر خوادم شبيه الست تخدمها الموالي
وأما الشقر إن طاروا تصدق بنات الريح تسبق في المجالي
وأما الخضر مركوب الإمارا فتركبها الملوك وكل والي
وأما الدهم زيدوهم عليقا وسيبوهم لدهمات الليالي

قال الراوي: لما فرغ الزير من كلامه شكره قومه على حسن اهتمامه ثم استعد الفريقان للقتال وجرت بينهم عدة وقائع وأهوال انتصر بها المهلهل وكسب أموالاً كثيرة وقتل سادات شهيرة حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها قلت واضمحلت فبينما هم في حالة الذل والانكسار وإذا بغبار قد علا وثار قاصداً بلادهم وتلك الديار فشخصت إليه الأبصار ساعة من النهار إلى أن ارتفع وتمزق وبان من تحته ألف فارس وكلهم بالسلاح والدرق لوابس وفي أولهم فارس بالحديد غاطس كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل وعلى رأسه البيارق والرايات والسناجق فلما رآه جساس استبشر وأيقن بالفرج بعد الشقاء والكدر ولما اقترب للعيان وتأملته الفرسان وإذا به أسد الآجام الأمير شيبون ابن الأمير همام وكان المذكور قد خرج في جماعة من الفرسان للغزو على بلاد الأروام وذلك من عهد وقوع الزير كما سبق الكلام فلما عرفوه وتحققوه خرجوا إليه واستقبلوه وفرحوا بقدومه إلى الديار وكان هذا

اليوم عندهم أعظم نهار فذبحوا الذبائح وأطعموا الغادي والرائح وكان أفرح الخلق أبوه همام وأمه ضباع حيث لم يكن لهما غيره سوى الذي قتله الزير على بير السباع فلما نزل في صيوانه بأبطاله وفرسانه خلع عدته وغير ملابسه فدقت له النوبات وقامت الأفراح والمسرات وعمل جساس وليمة عظيمة دعي إليها جميع أكابر وأمراء القبائل والعشائر وكان شيبون قد وجد السادات والأعيان في هموم وأحزان فسأل عن ذلك الشأن فقال له جساس: لا تسأل يا ابن أخي عما أصابنا ودهانا من خالك الزير المهان فإنه لم يكتف بقتل أخيك شيبان حتى جعلنا مثلاً بين العربان على طول الزمان فأفنى رجالنا وأهلك أبطالنا وحرمنا هجوع الليل وهدمنا القوى والحيل وهو لا يقبل منا دية ولا مالاً ولا فدية وقد أعلمناك بالقضية وأوقفناك على باطن الطوية فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضياء في عينيه كالظلام واحمرت عيناه وشتم خاله ووعدهم بالمساعدة والمعاضدة وأن يكون معهم على قتال خاله يداً واحدة ثم نظم هذه الأبيات وأرسلها لخاله على سبيل الملام والتهديد.

قال شيبون بن همام الأمير حامي الزينات طعان العدا
مرعب الفرسان في يوم اللقا ساقياً للعدى كاسات الردا
ضرب سيفي يقطع الدرع المتين ثم يقدح للصخور الجمدا
كل من يبغي قتالي يرتدي ويرتمي فوق الصعيد ممددا
لم يبق لي مقارن في المجال حين يلقوني يولوا شردا
وأنت يا خالي مهلهل يا همام شد عزمك للقتال إلى غدا
لا تقل يا خالي ما أعلمتني يا قليل العقل لا تتمردا
أبرز إلي في الصباح ولاقني ثم أبشر يا مهلهل بالردى

ثم ختم شيبون الكتاب وأرسله إلى خاله مع أحد أبطاله فذهب به وأعطاه للزير فلما فتحه وقرأه وعرف فحواه غاب عن دنياه وشق عليه وتأسف وصفق كفاً على كف وقال: إنه معذور في هذه الأمور لأنه جاهل مغرور فاقتضى أن ينتصح قبل أن يقتل وأجابه على أبياته يقول:

يقول أبو ليلى المهلهل إنني مفرج الكربات في يوم الزحام
يا فتى شيبون يا ابن أختي ضباعا تهددني في كتابك يا غلام

ثم تطلبني إلى سوق المجال وأنت قصير عن ضرب الحسام
احتفظ من أن تجهل يا أمير الجهل يسقيك كاسات الحمام
اطرد الشيطان إبليس اللعين وانتصح من قول خالك يا همام
لا تخالفني واسمع ما أقول يقتلك جهلك وما تبلغ مرام
ارتجع عما أنت فيه لا تزيد إن كنت تبغي حربي والصدام
شد عزمك غداً نتلاقى سوى من طلوع الفجر إلى وقت الظلام

فلما انتهى الزير من الشعر أرسل الكتاب إلى ابن أخته شيبون فلما فتحه وعرف ما احتوى عليه من المضمون مزقه ولم يكترث ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح دقت طبول الحرب والكفاح وركب شيبون وجساس وكذلك الزير الفارس الدعاس والتقوا بأبطالهم ورجالهم وكان شيبون قد برز إلى ساحة الميدان وتبعته الأبطال والفرسان والتقى بفرسان تغلب وفعل بهم العجب فما صدم فارساً إلا عطبه وعن ظهر جواده قلبه ثم صاح وحمل بقلب أقوى من جبل وطلب مبارزة خاله المهلهل وكان الزير شاهد أفعال ابن أخته وما فعل بأبطاله ورفقته حمل عليه واحمرت آماق عينيه وقال: اذهب يا وجه العرب قبل أن تهلك وتعطب فقال: إلى أين أذهب يا خالي وأنت بغيتي وآمالي فواللّه لأقتلنك في هذا اليوم وأطفي من بين القوم نارك لأنك طغيت وتجبرت وافتريت فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد والتقاه بقلب شديد وجرى بينهم وقائع وأهوال تشيب رؤوس الأطفال ولما طال المطال قال له الزير أمام الفرسان: ارجع يا ابن أختي بأمان قبل أن يحل بك الهوان وتلحق بأخيك شيبان فارجع إلى أهلك وأمك وأرسل لي أبطال قومك مع جساس عمك فلم يجبه شيبون بكلام بل كان يقاتل كسبع الآجام وكان الزير كلما حكم عليه الضرب في الحرب يتمنع عن أذاه شفقة عليه وإكراماً لخاطر والديه وما زال يقاتله ويداريه وينصحه بالرجوع عما هو فيه إلى أن أقبل الظلام فعند ذلك توقف القتال ورجعت الفرسان عن ساحة الميدان ثم التقوا في اليوم الثاني وكان أول من برز إلى ساحة الميدان الأمير شيبون فصاح وطلب مبارزة المهلهل فالتقاه الزير ونهاه عن قتاله فلم ينتصح بما قاله بل تقدم إليه وحمل عليه وأشار يتهدده بقوله:

قال شيبون ابن همام الأمير فارس الفرسان في يوم النكير
استمع يا زير قولي وافتهم لا بد من قتلك يا وغد حقير

ما بقا لك مخلص مني ولا من حسامي اليوم لو أنك تطير
ثم آخذ ثأر أعمامي الجميع كم بطل صنديد صيرته حقير
ليس لك قلب على أختك يحن وأولاد عمك ذاقوا منك النكير
كم قتلت منهم خلق كثير كم يتمت من طفل صغير
سوف ترى حربي يا مهلهل في لقا الأبطال ما لي نظير
قد أخبروني يوم جئت بأنك يا قليل العقل تركب حمير
ما يقتني الحمار إلا الحمار ما أنا مثلك ولا عقلي صغير
هات سيفك ورمحك والثياب هات أبو حجلان كالطير يطير
حتى أقيلك من حسامي والقنا وتطلب الجيرة ومثلي من يجير
إن كنت لا تسمع فهذا حربنا ويكون النصر من ربي القدير

فلما سمع الزير هذا الكلام كان عليه أشد من ضرب الحسام أجابه بقوله:

صبر أبو ليلى المهلهل ثم قال أنت يا شيبون ما عاد لك مجير
هرجت يا شيبون في قولك كثير الجحش لا يحمل كما يحمل بعير
لو سقيت الجحش من سكر وسمن ولو خلطت له الصنوبر بالشعير
لا عاش أصله ما ينفع منه الجميل أكيد هو مجنون من يقتني الحمير
وأنت يا شيبون لو لم تكن حمار ما رجعت إلى حربي اليوم تغير
فإني قد عفوت عنك البارحة لأجل أمك وأبوك نعم النصير
وأنت تعلم أنني سبع الرجال قتلت منكم اثني عشر ألف أمير
هذا غير التوابع والغريب تاه في هذا العدد ناس كثير
كم نصيحة نصحتك لم تنتصح جاهل سوف تقع في وسط بير
لم يبق لي ذنب إن أباك مني ضرب بهدم الأبدان ما عاد لك مجير
دونك الميدان يا شيبون قم شد عزمك لا يكن باعك قصير
وأنت يا شيبون ولو لم تكن حمار ما رجعت إلى حربي اليوم تغير

فلم يلتفت شيبون إلى كلامه ولا اكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة أسد الغاب وأخذ معه في الطعن والضرب فالتقاه المهلهل بالعجل بقلب أقوى من الجبل واشتد بينهم القتال وعظمت الأهوال حتى تعبت من تحتهم

الخيل وارتخى منهما العزم والحيل ومالا على بعضهما كل الميل هذا والزير يطاوله ويحاوله، واستمرا يتقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى استعاذت من قتالهما مردة الجان واستعظمته الشجعان وشخصت إليهما عيون الفرسان وكان شيبون يود أن يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخر بذلك على أهله وأقرباه إلى أن اغتنم الفرصة وهز الرمح وطعنه بين ثدييه فخلى المهلهل عنها فراحت خائبة فزاد غضب المهلهل وتوقد قلبه وصمم أن يسقيه كأس العطب وجذب سيف حكمون وقال: اليوم أريك يا مجنون كيف الضرب يكون لأني نصحتك فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت ثم تقدم إليه وهجم عليه وضربه على مفرق رأسه فشقه إلى دكة لباسه فوقع على الأرض يختبط بعضه ببعض فلما رآه المهلهل وهو قتيل ندم على ما فعل فتحسر وهطلت من عينيه الدموع. فلما قتل شيبون احمرت من بني مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وأيقنوا بالهلاك والشتات ولكنهم أخفوا الكمد وأظهروا الصبر والجلد وقاتلوا قتال الأسود وطلبوا الرايات والبنود فالتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهم بالسيوف البواتر وأحاطهم إحاطة الخواتم بالخناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنائم جسيمة فلما رأى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه وأجناده ولى يطلب الهرب خوفاً من العطب وتبعه فرسان العرب وقد أبصروا في ذلك اليوم العجب من قتال بني تغلب فرجع عنهم الزير وهو حزنان على فقد ابن أخيه شيبون فنزل في الصيوان مع الأمراء والأعيان ولم يكن له أدت إلى البكاء والانتحاب ولما جلس في الصيوان أنشد هذه الأبيات وهو من الحزن على آخر رمق:

الزير أنشد شعراً من ضمايره ... العز بالسيف ليس العز بالمال
دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها ... يغير اللَّه من حال إلى حال
عم الذي أنت مغمور بنعمته ... خال الذي أنت من أضراره خالي
فكن مع الناس كالميزان معتدلاً ... ولا تقولن ذا عمي وذا خالي
لا يقطع الرأس إلا من يركبه ... ولا ترد المنايا كثرة المال

فلما فرغ الزير من كلامه انطرح على فراشه من حزنه على ابن أخته ولما بلغ قتل شيبون أبو همام وأمه ضباع احترق قلبهما عليه لأنه كان ابنهما الوحيد بعد أخيه شيبان وكانت الفرسان قد أتت بجثته إليهما فبكيا بكاء شديداً ومزقا الثياب

وبعد ذلك دفنوه في التراب وفي اليوم الثاني ركب الأمير همام لقتال الزير وتبعه جساس وباقي الأبطال والفرسان وبلغ المهلهل الخبر فركب في أبطاله وفرسانه ولما التقى الفريقان برز الأمير همام إلى معركة الصدام وطلب مبارزة الزير وكان غير صفاته ووضع لثاماً على وجهه حتى لا يعرفه أحد فبرز إليه المهلهل وهو لا يعلم بأنه الأمير همام فاقتتلا ساعة من الزمان وكان همام قد ضرب المهلهل بالحسام قاصداً أن يسقيه كأس الحمام فخلى الزير عنها فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فسقط عن الجواد كأنه طود من الأطواد فالتفت وقال للزير: آه يا مهلهل لقد قتلت ابن أختك نهار أمس واليوم تقتل صهرك همام فلما سمع الزير هذا الكلام تنغص عيشه وزاد همه وكدره وقال له: يا همام قال: نعم قال: أما عاهدتني أنك لا تقاتلني أبداً وأننا نكون أصحاباً على طول المدى فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالي وأنت تعلم بأنك لست من رجالي؟ فقال: لقد جرى القلم بما حكم فانقضت حياتي ودنت وفاتي وهذا الأمر مقدر بأمر رب البشر وما دام الأمر كذلك يا فارس كف أذاك ودواهيك واجعلني فدى أخيك فقال: واللَّه يعلم كم عز علي فقدك ولا يطيب لي عيش من بعدك لكنني لن أكف الحرب والصدام حتى لا يبقى من بني بكر شيخ ولا غلام ثم إنه بعد هذا الكلام هجم على المواكب ففرقها وطعن في أبطالها فمزقها فتأخرت عنه الفرسان ورجعت إلى الأوطان وهي في حالة الذل والهوان ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن الدنيا وقد عظم مصابها وسارت إلى بني تغلب ودخلت على أخيها المهلهل وقلبها يلتهب وقالت له بكلام الغضب: هكذا تفعل يا أخبث العرب تقتل أولادي وبعلي وتحرمني أهلي وتتركني حزينة طول الدهر أقاسي الذل والقهر هكذا تكون الأخوان الذين يدعون الفضل والإحسان فوحق الإله القادر الفاحص القلوب والضمائر أن موتي ألذ عندي من الحياة وأفضل فإنك نسيت الجميل والمعروف وقابلتني بالغدر والمتلوف بعد أن خلصتك من الحريق وكشفت عنك ذل الضيق فلما سمع الزير منها ذلك الخطاب أظهر الحزن والاكتئاب وتلقاها بالإكرام والترحاب ثم اعتذر لها بالغلط وأخذ يطيب خاطرها ويعزيها عما فرط وأمرها أن تسكن عنده بخدمها وحواشيها فامتثلت كلامه وأقامت في بيت أخيها ولما عظم الأمر على جساس وبني بكر وكثر فيها القتل والسبي أرسلوا يستنجدون أهل اليمامة فأمدوهم برجل منهم يقال له الفند بن سهل وكان من جبابرة الزمان وفرسان الأوان لا يبالي ولا يخاف كثرة الرجال

وكان يلقي نفسه على المخاطر ويصيد الأسود الكواسر فسار إلى مساعدة القوم من ذلك اليوم وقد انتخب من الشجعان سبعين فارساً مثل العقبان يقاربونه بالشجاعة والفروسية والهمة العلية وكانت أهله قد كتبت إليهم تقول: قد أمددناكم بعشرة آلاف فارس من الفحول وبهم تنالون من أعدائكم المأمول فلما قدموا إلى تلك الأطلال ورآهم جساس وباقي الأبطال فاعتراهم الانذهال لأنهم لم يروا أكثر من سبعين تحت راية الفند الأسد العربند فقالوا: أين جماعتكم؟ فقال الفند: أنا بسبعة آلاف فارس وأصحابي بثلاثة آلاف مداعس فابتسموا من هذا الكلام والتقوهم بالإكرام والاحترام وذبحوا لهم النوق والأغنام ونصبوا لهم المضارب والخيام ثم استعدوا للحرب وسمع بهم المهلهل فزحف من يومه بفرسان قومه فالتقته بنو بكر في مكان يدعى عقبة الريحان فلما اقترب العسكر قال الحارث بن عباد لجساس قائد القواد: هل تطيعني أيها الأمير فيما أقول وأشير؟ قال: قل ما بدا لك فإني لا أخالف مقالك قال: اعلم أن القوم مستخفون بقتالنا لضعفنا وقلة رجالنا فقاتلهم بالنساء والرجال فتبلغ القصد والآمال فقال جساس وقد اعتراه الانذهال: ما معنى هذا المقال وكيف تقاتل النساء مع الرجال؟ قال: إنك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع البنات والنسوان اللواتي اتصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطي كل واحدة مطرقة من خشب وتصفهن خلف الرجال وقت الحرب والقتال فإن هذا مما يزيد الأبطال نشاطاً في ساحة المجال فإذا جرح منكم أحد يسقينه بالماء فاستصوب هذا الرأي واستحسنه وفي عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هذا الحال فأجابوا أمره بالامتثال ولم يبق يومذاك من بكر أحد إلا حلق واستعد إلا رجلاً من الفرسان اسمه ربيعة بن مروان وكان قصيراً ذميماً وفارساً خطيراً فقال: إنني ذميم قصير وإذا حلقت رأسي أصير معيرة عند الصغير والكبير فادعوا لي ولأمتي يا سادات العرب وأنا أبلغكم الأرب وأقتل لكم فوارس من تغلب فأجابوه إلى ما طلب.

قال الراوي: ولما التقت العساكر وتضاربت السيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الآجام وألهبوهم بضرب السيوف على الهام فارتدت بنو بكر طالبة الانهزام فأشهر جساس وفي يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد في الغمام وقال: ويلكم ارجعوا وقاتلوا بقوة وعزيمة فإن الموت أفضل من الهزيمة فاجتمعت بنو بكر بعد الانفلال إلى الحرب والقتال وانضموا كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة وصاح الفند وابن سهل وألقى نفسه على القتال وهو ينخي

ويصيح على الرجال ففرق المواكب وأظهر بقتاله العجائب فلما رآه المهلهل برز إليه وطلب قتاله فالتقاه الفند بن سهل بقلب كالحديد وهجم عليه هجوم الصناديد وما زالا في قتال شديد ما عليه من مزيد إلى وقت الزوال فتفرقا عن الحرب والقتال وافترقت العساكر عن بعضها البعض ونزلت في جوانب الأرض وكان ربيعة لم يحلق رأسه من بني بكر فقد قاتل قتالاً شديداً حتى أثخن بالجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فوقع طريحاً بين القتلى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بني بكر فوجدنه ذا لحية طويلة فضربنه بالمطارق وأوردنه المهالك فضربت به الأمثال وتحدثت به ألسنة الرجال ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفوارس ظهور الخيول واعتلوا السيوف والنصول وتقدموا إلى ساحة الميدان للضرب والطعان وكان المهلهل في أول الجحفل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من ذيل جبل وحمل على جيوش الأعداء كليث الآجام وضرب فيهم بالحسام وتبعه امرؤ القيس بن أبان واشتد بين الفريقين القتال وكثر القيل والقال وتقطعت الأوصال وجرى الدم وسال وكان يوماً شديد الأهوال لم يسمع بمثله في الأجيال كثر فيه القتال والجراح وتمددت فيه الفرسان على وجه البطاح وارتجت الأرض من صهيل الخيول وقعقعة السلاح وهول الكفاح وكان جساس قد حمل على مواكب المهلهل وقاتل حتى استقتل وقعلت فرسانه مثلما فعل وبذل جساس في ذلك اليوم غاية الجهد وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الأسود واشتد على المهلهل القتال وأحاطت به الأعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل ويمانع وينخي رجاله على الثبات ويدافع حتى جرح في ثلاثة مواضع فزاد عليه الحال وازدحمت حوله الرجال وتأخرت عن ساحة المجال خوفاً من الهلاك والوبال وانكسر بنو تغلب في ذلك النهار أشد انكسار وتفرقت في البراري والقفار واستظهرت بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت منها جماعة من الأمراء والأعيان والصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان وزينة الفرسان امرؤ القيس بن أبان وكان من بين الأعيان وصيته محمود مشكور وهو غير الشاعر المشهور فبكى الزير عليه وكان يحبه ويميل إليه ورجع بنو بكر إلى الديار بغاية الفرح والاستبشار على ذلك الانتصار.

أما المهلهل فقد زاد حنقه على بني بكر وبات تلك الليلة على مقالي الجمر وفي الصباح جمع الفرسان والأبطال وتجهز للحرب والقتال فالتقته بنو بكر بقلوب كالجبال وجرت بينهم وقائع وأهوال لم يسمع بمثلها في سالف الأجيال

واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة أيام وكان المهلهل قد انتصر في أكثر الوقائع وقتل جماعة من فرسان المعامع ولما كثر القتال بين الفريقين اتفقوا على توقيف الحرب مدة شهرين فافترقت الفوارس عن بعضها ونزلت كل فرقة بأرضها.

قال الراوي: وحين قتل كليب كما تقدم الكلام كانت الجليلة حاملة فلما طردها الزير إلى بيت أبيها وسكنت عند جساس أخيها فولدت غلاماً سمته الهجرس ولقبوه بالجرو فكان مع أخواله بني مرة وأولادهم وكان خاله يحسن إليه وكان الغلام قد أحب خاله جساس دون باقي الناس فلا يدعوه إلا أباه ونشأ الغلام ذا عقل وأدب وهو محبوب من جميع العرب لفصاحته وبراعته وقوته وشجاعته وكان يركب ظهور الخيل ويتعلم عليها الفروسية في النهار والليل فبرع واشتهر وعلى فرسان القبيلة افتخر ولما بلغ عمره خمسة عشر عاماً زاد شهرة وارتفع مقاماً فرآه جساس في بعض الأيام وهو كأنه ليث الآجام والشرر طائر من عينيه ولا يقدر أحد عليه فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش وكان كثيراً ما يتأمل في أمره ويخاف من سطوته وشره لأنه قتل أباه بالأمس وتركه يتيماً مدى الدهر واتفق ذات يوم أن الجرو ركب في جملة من الشبان وأخذوا يتعاطون الجريد في الميدان وكان من بين الغلمان عجيب ابن الأمير جساس وكان شديد البأس فطعن الجرو طعنة فمال عنها فراحت خائبة ثم إن الجرو تقدم نحو عجيب وطعنه جريدة أصابته فألقته عن ظهر الجواد إلى الأرض فنهض غاضباً وشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال: أهكذا تفعل يا ابن اللئام بأبناء السادات الكرام وأشار يهدده بهذا الشعر:

يقول عجيب من قلب موجع ألا يا رفقتي حالي عجيب
ضربني الجرو منه جريدة فأرماني وصيرني كئيب
ولم يعلم بأني خير ماجد ولد جساس قرم مستهيب
ولولا عمتي لقطعت رأسه وأطرحه على الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الأعادي ولا ضد الكلاب إلا القضيب
دعوه يروح عنا لا يماطل ويذهب مسرعاً قبل المغيب

فلما فرغ عجيب من نظامه وفهم الجرو فحوى كلامه أجابه على شعره قائلاً:

يقول الجرو اسمع يا ابن خالي كلامك ليس يسمعه أديب

تقول اليوم تقتلني بسيفك وتتركني على الغبرا قليب
إذا أبصرتني يوماً فريداً فتقتلني بسيفك يا عجيب
فانزل عن جوادك يا ابن خالي وافعل ما تريده عن قريب
وافعل ما تريده اليوم فينا فإني لا أخافك يا عجيب

فلما فرغ الجرو من كلامه وإذا بسلطان أخو جساس أقبل عليهما في ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن أخيه فلما فهم المسألة اغتاظ غيظاً شديداً وشتم الجرو وقال: لولا كرامة أمك لقطعت رأسك وأخمدت أنفاسك فقال: يا خالي أنا بين يديك فافعل ما تريد ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد موجوع وسار إلى أمه وأعلمها بما جرى وطلب منها الرحيل من تلك الأوطان فتكدرت أمه وأجابته إلى طلبه وفي الليل تركا المضارب والخيام وسارا تحت جنح الظلام في جماعة من العبيد والخدام وجدا في قطع البراري والآكام مسافة عشرة أيام واتفق في اليوم الحادي عشر أنهما التقيا بشيخ في ذلك البر الأقفر وهو يقطع البر الفسيح على فرس تسبق الريح وبمعيته عشرة أبطال من صناديد الرجال وكان قد خرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع إلى الأوطان فتقدم الجرو وسلم عليه فرد عليه السلام وقال له: أيها الفتى الماجد من أين أتيت؟ وإلى أين قاصد؟ فقال الجرو: طردني أهلي وربيت يتيماً وأنا طالب إنساناً كريماً حتى التجئ إليه وأقيم عنده فقال الشيخ: إذا كان الأمر كما تقول فشرفني إلى اطلالي وأنا أفديك بروحي ومالي وأشار يقول:

يقول الأمير منجد من قصيد أيا قاصداً نيل المآرب
فشرف منزلي وأمر عبيدك يردون الأباعر والنجائب
بكم قد حلت البركة علينا وزال الشر عنا والمتاعب
فمثلي ما تلاقوا أين سرتم وعندي تبلغوا كل المطالب
أنا منجد من نسل الأكارم أبي وائل وما فينا معاتب
ألوف ألوف تخدمني وتخضع لأمري في المشارق والمغارب
وأنت بقيت بعد اليوم ابني ولست أنا في قولي بكاذب

وكان هذا الشيخ اسمه منجد ابن الأمير وائل وهو خال كليب والزير وقد كنا ذكرنا عنه في أول الكلام بأنه بعد قتل ربيعة أبو كليب استخدم مع إخوته الثلاثة عند التبع في بلاد الشام ولما قتل التبع ولى وهرب لأنه كان يبغضه دون

أهله وعشيرته فلما فرغ من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع إلى عند أمه على الأثر وأعلمها بما جرى وكان ثم إنهم ساروا معهم إلى الأوطان ونصبوا المضارب والخيام فأكرمهم منجد غاية الإكرام وأنزلهم في أعز مقام وكان لمنجد عشرة أولاد ذكور كأنهم البدور فائتلفوا الجرو وأحبوه وكانوا لا يفارقونه وعرفت أمه الجليلة الأمير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الأمر عن زيد وعمرو خوفاً من العواقب وحلول النوائب فاجتمعت بابنها الجرو وقالت: إذا سألك أحد عن اسمك فقل اسمي الهجرس ولا تقل الجرو فقال: إن الاسمين بمعنى واحد فما هو مرادك بذلك؟ فقالت: إن الهجرس كلب الصيد فإنه أصلح من الجرو ابن الكلب وأنت أمير وأبوك كان من الفرسان المشاهير ومن ذلك اليوم سمي الهجرس وغلب عليه هذا اللقب بين العرب وكانت أمه في قلق عظيم خوفاً عليه فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيده وكان اسمه صبيح وأشارت إليه بهذا النظام:

تقول الجليلة بدمع سجام أيا صبيح اسمع لي الكلام
فهذا الشيخ الذي تراه مكيد الأعادي بضرب الحسام
سمي منجد صميدع عنيد ولد وائل وافي الزمام
فهو أمير ابن أمير وحوله عساكر كثيرة كفيض الغمام
فهذا خال كليب الأمير مع سالم الزير قرم همام
فهو خالهم قد عرفته سريع بطل همام في يوم الزحام
وهو خال زوجي لكن عدو كيف العمل الآن صرنا نضام
واصل العداوة كليب الأمير قتل إخوته في دمشق الشام
قتل التبع وأخذ ثأر أبوه أهلك إخوة المنجد ونال المرام
ونحن الآن نزلنا عليه عرفته وقد اعتراني السقام
إني أخاف على ابني حقيق يهينه ويدعي دمه سجام
عدوك إياك تركن إليه ولو أنه سقاك المدام

فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها وفهم صبيح كلامها قال لها: أين نتوجه الآن وقد صار لنا مدة من الزمان ومن الصواب أن نكتم أمرنا عن كل إنسان ليفرجها علينا الرحمٰن واستمروا مدة طويلة وهم في أرغد عيش وأحسن حال وفي بعض الأيام أغار على الأمير منجد بعض ملوك العربان في ثمانين ألف عنان

فالتقاه منجد في عسكر جرار وظل معه في خصام وصدام شهوراً وأياماً حتى انكسر الأمير منجد عدة مرات وآل أمره إلى الدمار فلما شاهد الجرو ما حل بمنجد من الأهوال أخذته الحمية فبرز إلى ساحة المجال فبارز الأبطال وقاتل الشجعان وأظهر الغرائب والعجائب ففرق بحملته الصفوف ومزق الكتائب وكسر ذلك العسكر وفعل فعالاً تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقمر وعند رجوعه من معركة القتال بالنصر والإقبال شكره منجد على تلك الفعال وقال له: مثلك تكون الرجال لقد حميت الحريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكراً جميلاً على طول السنين، وعند وصولهما إلى سراية الأحكام وجلوسهما في الديوان قال له منجد بحضور السادات والأعيان: مثلك تكون الفرسان فأعلمني عن حسبك ونسبك وعن قومك فأجابه الجرو بهذا القصيد:

أيا فخر الأماجد في الرجال فاسمع يا ملك فحوى كلامي
أنا اسمي اليتيم أيا مسمى ولا أعرف أبي ولا خوالي
وإني قد سألت أمي مراراً فتسكت ولا ترد لي سؤالي
تقول أبوك شاليش بن مرة قتله الزير في يوم النزال
فأطلب من إلٰه العرش ربي لأخذ الثأر منه بالقتال

فلما فرغ الهجرس من كلامه زاد منجد في احترامه ونهض على الأقدام واعتنقه أمام السادات الكرام وقال له: أنت من بني مرة أصحاب الشجاعة والقدرة فعربك من عربي ونسبك من نسبي وما ضاع نظري فيك فأطلب من اللَّه أن يحفظك ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك ومن ذلك الوقت زاد في إكرامه ورفعه على جميع أقوامه وأقامه ملكاً على تلك الديار وصار له مزيد من الوقار والاعتبار عند الكبار والصغار وكان لمنجد بنت بديعة الجمال متصفة بالأدب والكمال ذات عقل ثاقب ورأي صائب لا يوجد مثلها في الأعاجم والأعارب اسمها بدر باس فزوجه إياها وتمتع الجرو بحسنها وأقام في أرغد عيش وأحسن حال وهو يحكم على تلك الأطلال وقد أحبه جميع الرجال، أما جساس فإنه بعد رحيل أخته من الديار زادت به الأكدار وكان كثيراً ما يتذكرها في الليل والنهار فاتفق في بعض الأيام وبينما هو جالس في الخيام دخل عليه شاعر فسلم عليه وأخذ يمدحه بهذا القصيد:

قال جابر في بيوت صادق أنت يا جساس رب المكرمات

سمعت بصيتك أنا يا ذا الأمير في الكرم والجود يا فخر الذوات
أنت ملك البلاد جميعها حاكماً بالأرض من كل الجهات
قاتل الضد في يوم الوغى مكرم للضيف سنة الممحلات
أنت يا جساس ملك البلاد مع إخوتك وشقايقك السيدات
لولاكم ما كنت جئت لأرضكم ما كنت فارقت العيال مع البنات
وتركت أختي يا ملك وأولادها وزوج أختي يا ملك ذا العام مات
أولاد أختي يا ملك سبعة ذكور عند أولادي وأهلي تبات
جور هذا الدهر في الدنيا عجيب كم له في كل يوم تقلبات

فلما فرغ جابر من نظامه وفهم جساس فحوى كلامه أمر له بألف دينار واعتبره غاية الاعتبار والتفت إلى أخيه سلطان وقال له أمام السادات والأعيان: أسمعت كلام هذا الشاعر الذي يدور القبائل والعشائر ويمدح السادات والأكابر كيف ذكر أخته في شعره ولم ينسها طول دهره ونحن سلاطين الزمان وملوك العصر والأوان نترك أختنا تغضب منا وتبعد عنا ولا نعلم أين ذهبت ولا أي قبيلة طلبت فماذا تقول عنا دول الممالك إذا سمعت عنا ذلك فالواجب أن نقتفي أخبارها ونعيدها إلينا معززة ثم بكى أمام جلسائه وبكى إخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل واستعظم ذلك العمل ثم التفت جساس إلى ذلك الشاعر وقال له: أنت تطوف حلل العرب وتمدح الملوك وأصحاب الرتب فأريد منك أن تستقصي أخبار الجرو وأمه الجليلة وتعلمني إلى أي حلة قصدوا وعن اسم القبيلة فإذا أتيتني بالخبر بلغتك القصد والوطر فأجاب الشاعر أمره وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصي عن حقيقة أمرهما حتى سمع بخبرهما فقصدهما إلى ذلك المكان واجتمع بهما في الصيوان وحدثهما بما سمع في حقهما من جساس وسلطان ثم أشار يمدح الجرو في هذا القصيد:

يقول جابر من قلب حزين فدمعي سال من وسط الأماق
أدور على القبائل والعشائر لأحظى بالمكاسب والنياق
إصغي يا أمير إلى كلامي فأنت أرجل فرسان السباق
فصيتك شاع في كل القبائل فمن يمن إلى أرض العراق
وما لك في البرايا من شبيه ونجمك فوق رأس المجد راق

سألت اللَّه أن يحفظ جنابك على طول المدى والدهر باق
ورحنا من حماه لعند خالك ملك جساس سلطان الآفاق
فأهدانا وقد أنعم علينا وقلبه من بعادك باحتراق
وسألني لأكشف أين أنتم ليجمع شملكم بعد الفراق

وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهي خلف الحجاب والستر فما هان عليها أن تسمع بذكر إخوتها لأنهم كانوا سبباً لغربتها فأمرت كبير العبيد أن يوقف الشاعر عن إتمام القصيد وأن يكتم خبرها عن الجميع ثم أمرت له بألف دينار وأعطاه الجرو مثل ذلك ففرح الشاعر واستبشر ورجع على الأثر وأعلم جساس بذلك الخبر فأرسل في الحال أخاه سلطان في جماعة من الأبطال ليأتوه بأخته الجليلة وابنها الجرو من تلك الأطلال فلما اقترب سلطان من تلك الأطلال أرسل بعض الفرسان ليعلم منجد بقدومه فخرج في جماعة من فرسانه فالتقاه أحسن ملتقى لأنهم كانوا أقارب وأصدقاء وأنزله في سراية الأحكام وذبح له النوق والأغنام وأكرمه غاية الإكرام وفي ثاني الأيام اجتمع سلطان بأخته الجليلة وولدها الجرو واعتذر لهما عما فرط منه وطلب إليهما الرجوع إلى الديار وشدد عليهما في ذلك فأجابه إلى ما طلب وأعلم الجرو الأمير منجد بأنه يريد الرجوع إلى أهله وعشيرته مع أمه وزوجته وجماعته لأن نفسه اشتاقت إلى الوطن فقال منجد: واللَّه يا أمير يعز علينا فراقك ولكننا لا نقدر أن نمنعك عن أهلك وأصحابك وبني عمك وأحبابك ثم أعطاه مائة ناقة محملة من نفائس الأقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعادن والجواهر وماية عبد وماية جارية وأركب ابنته في هودج كبير وسار لوداعهم مسافة نصف يوم ثم رجع إلى الديار وسار الهجرس مع أمه وزوجته يقطعون القفار حتى وصلوا إلى منازل بني مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة وأمر بذبح الذبائح وأطعم الغادي والرائح وأشار يقول:

لما قال الفتى جساس صادق أيا مرحباً بك يا ابن أختي
ففيكم قد حلت البركة علينا وضاء الحي في قربك إلينا
وأمك يا فتى عيني وروحي وعمرك يا جليلة ما فرحت
فابنك قد غدا كالسبع كاسر فإن الجرو للأعداء كاسر
بيوم الحرب والأهوال جاسر إلٰه العرش أرجعه لبختي
فلا تعتب على سلطان خالك ولا قوله سيخطر قط ببالك

فلا ابني ولا نحن مثالك أناساً حكمك في ملك خالك
أنا أبكي على المرحوم بيّك قتله الزير في ربعك وحيك
فقم اركب يا ابن أختي واشخت للمهلهل أي شختي
سألت اللّه أن تأخذ بثأرك وتقتله بسيفك أو سنانك
مرادي تكشف عنك عارك وتحرقه يا جريوي بنارك

فلما فرغ جساس من شعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقال له: كن مطمئن الخاطر يا خالي هذا ما كان من الجرو وجساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه بينما كان راقداً ذات ليلة إذ رأى في منامه ولذيذ أحلامه أخاه الأمير كليب وهو يعاتبه بهذه الأبيات على أخذ الثأر وكشف العار:

تنام الليل كله يا مهلهل وثأري ما قدرت على وفاه
وعظمي ذاب حتى صار كحلاً وجساس بن مرة بالحياه

فأجابه الزير بقوله:

أمير كليب ما قصرت يوماً بأخذ الثأر من قوم البغاة
فقم اسأل بناتك يا حبيبي على طعني وضربي بالعداة

وبنات كليب شاهدن أباهن في نفس الوقت فأيقظن عمهن قائلات:

يقولون اليتامى يا مهلهل أتانا كليب يستنجد أخاه
كليب قادم من وسط المقابر وصار كليب في وسط الحياه

فاستيقظ فرأى البنات حواليه فأخبرته بالأمر فقال: وأنا أيضاً رأيت أباكن في المنام ثم حدثهن بما سمعه ورآه فبكين بكاء شديداً فقال الزير: المنام يدل على أمر عجيب وحادث يقع عن قريب فضرب الرمل ورسم الأشكال حتى عرف حقيقة الخبر فقال الرمال: لك البشرى يا فارس الصدام فإن جساساً سوف يقتل بعد أيام من فارس يظهر من لحمك ودمك وأشار قائلاً:

يقول بشير اسمع يا مهلهل أيا سالم فأبشر زال همك
أتاك النصر من رب البرايا إلٰه العرش بالخيرات عمك
وقد ظهرت رسوم الرمل عندي سيظهر شخص من لحمك ودمك
فيقتل في الوغى جساس حالاً وأنت تزوجه ويزول همك

وتـــهـــلـــك بـــعـــده أولاد مـــرة وتـسـقـيـهـم جـمـيـعـاً كـأس سـمـك

فلما سمع المهلهل هذا الشعر فرح واستبشر وقال: إن تم هذا الكلام أبشر مني ببلوغ المرام ثم أحسن إليه ووعده بكل جميل ولما أصبح الصباح بنوره ولاح ركب المهلهل إلى الحرب والكفاح وتبعته الأبطال والفرسان وركب أيضاً الأمير جساس بالأبطال والفرسان واقتتلوا طول ذلك النهار فقتل المهلهل منهم كثيراً وما زالوا في قتال حتى دقت طبول الانفصال فافترقت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة بأرضها وأما الهجرس فإنه لم يركب مع جساس في ذلك اليوم فسأل جساس أخته الجليلة في المساء وقال لها: إن ابنك لم يقاتل معنا ولا أعلم السبب فسألت ابنها عن عدم خروجه إلى الحرب فأجابها بقوله: اعلمي يا أماه أنه لا يلقاني سوى حصان خالي جساس الأخراج فإن وهبني إياه فأنا أعطيه عوضه رأس المهلهل فإن قبل بهذا الطلب بلغته غاية الأرب فرجعت الجليلة على الأثر وأعلمت أخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له: إن أنت قتلت هذا الشيطان تكون علينا ملكاً ونحن لك غلمان وأعوان ففرح الجرو بهذا الجواد وضمن لجساس قتل الزير أمام الفرسان والقواد ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركب الجرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور وركب الزير وطلب مبارزة الفرسان وقال: أين جساس الذليل المهان فليبرز إلى الميدان وقبل أن يتم كلامه برز الجرو إليه وأشار يقول:

يـقـول هـجـرس يـا مـهـلـهـل إن عـــزرائـــيـــل أقـــبـــل
أيـــن تـــغـــدو الـــيـــوم مـــنـــي سـوف تـلـقـانـي وتـقـتـل
لا تـــحـــســـبـــنـــي بـــظـــنـــك إنـــي كـــمـــن قـــد جـــاك أول

فلما فرغ الجرو من كلامه حمل عليه وكان المهلهل قد مال قلبه إليه وتحركت جميع أعضائه بإذن اللَّه نحوه أما الهجرس فقصد قتله وإعدامه ليوفي لجساس ضمانه وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختباره ولا كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره وما زالا على هذه الحالة وهما في عراك وقتال إلى أن دقت طبول الانفصال وعاد العسكران من ساحة الميدان ورجع المهلهل إلى الأبيات واجتمع ببنات كليب وأعلمهن بحديث الغلام وما جرى بينهما في معركة الصدام وكيف أنه أشبه الناس بأخيه كليب في الصورة والحرب ثم قال لليمامة: أعلميني هل كانت أمك حاملة لما ذهبت إلى بيت أبيها فقالت: نعم يا عمي

لها نحو شهرين ولكن ما هو معنى هذا السؤال فأجابها قائلاً:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل مريع الخيل إن قصدت إلينا
يمامة اسمعي مني كلامي أيا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتى أقاتل آل مرة أجمعينا
فبارزني فتى منهم غريب له عزم كما الصخر المتينا
كمثل أباكم وجهاً وحربا فذكرني ليالي الماضيينا
أنا قاتلته واللَّه بلطف وهو يطعن طعن القاتلينا
فحملاته وطعناته قوية تقد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهى الزير من شعره أجابته اليمامة بقولها:

ألا يا عم اسمع ما أقولك لتفهم سالم الخبر اليقينا
فأمي حاملة من يوم راحت وحق اللَّه رب العالمينا
ولا أدري وحقك أيش جابت أبنت أم غلام يا فطينا
ثلاث إشارات لي في كليب إشارات بعقلي راسخينا
ركب يوماً بقرب آل مرة وقال أيا يمامة فانظرينا
من التفاح أعطاني ثلاثة وقال بذي الثلاثة اضربينا
فإنك سوف تحتاجي إليهم إذا ظهرت لنا حقاً بنونا
ضربته بواحدة يا عم راحت بضرب ركابه مثل الطحينا
وثاني واحدة راحت برمحه وثالثها خطفها باليمينا
غداً أنزل وأضربه ثلاثة كفعل أبي أيا عمي الحنونا
يكون أخي إذا سوى نظيره وإن خالف يكون غريب منا
عسى اللَّه يدركنا بلطفه وينصرنا إلٰه العالمينا

فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع فحوى كلامها قال لها: متى فعل أبوك ذلك؟ قالت: قبل موته بشهرين عندما كنت على بير السباع وقد صممت الآن أن أرافقك إلى الميدان وأضربه بالتفاح في ساحة الكفاح فإن فعل كما فعل أبي يكون لا شك أخي وبه أبلغ أربي وفي ثاني الأيام ركب الزير للحرب والصدام وركبت معه اليمامة وقد أخذت معها ثلاث تفاحات وكان الجرو

أيضاً قد ركب بالأبطال فصال وجال وطلب الزير للحرب والصدام فبرزت اليمامة بالعجل وقالت: أنا أقاتلك اليوم دون المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ثم إن اليمامة أخذت التفاحة ولوحتها بيدها وضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطحنها ثم إنها ضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح وضربته بالثالثة وقالت: يا خالق الخلق أمح الباطل وأظهر الحق فأخذها بيده ووضعها في جيبه فلما شاهدت تلك الحال أيقنت أنه أخوها لا محال فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت إليه وألقت بنفسها عليه وقالت: أهلاً وسهلاً يا أخي يا ابن أمي وأبي فأنت واللَّه ابن الأمير كليب دون شك ولا ريب وقد ربيت في دار العدا والحمد للَّه الذي عرفناك بعد طول المدى فقال لها: أنا ابن شاليش أيتها السيدة الحرة وأمي الجليلة بنت الأمير مرة فقالت: أنت ابن الأمير كليب ثم أنشدت قائلة:

قالت يمامة قولاً من ضمايرها ... دمع العيون على الخدين هتان
اسمع أخي قصتي وافهم معانيها ... يا قاهر الخصم في وسط ميدان
أبوك قد خانه جساس يا سندي ... بطعنة يا عظيم القدر والشان
شاليش خالك كل الناس تعرفه ... أهل الأعارب من قاص ومن دان
وعمك الزير فارس الناس كلهم ... وفارس الخيل من عجم وعربان
فاسأل لأمك ثم السر فاكتمه ... وارجع إلينا فأنت اليوم بأمان

فلما فرغت اليمامة من شعرها تأكدت عنده هذه القضية لأن قلبه كان لا يميل إلى جساس أو إلى أحد من بني مرة وقد مال قلبه إلى اليمامة فقال لها سراً: لقد صدقت فاذهبي الآن وفي الصباح أتبعكم إلى الأوطان ثم توقف عن القتال ورجع إلى عند أمه وأخبرها بذلك الشأن وأن تعلمه من هو أبوه من الفرسان وحلف لها بالإلٰه الديان أنها إن كتمت عنه حقيقة الخبر قتلها وجعلها عبرة لمن اعتبر فلما عرفت بأن الخبر وصل إليه ولم يعد خافياً عليه أعلمته بالقصة من أولها إلى آخرها وأوقفته على ظاهرها وباطنها وأشارت تقول:

الجليلة قالت أبيات ... نار قلبي بالحشا زادت لظا
استمع يا ولدي فيما أقول ... يا ضيا عيني ويا كل المنا
أنت روحي افتهم مني الكلام ... قول صادق ليس فيه من خفا

أبوك كليب صور المحصنات قاهر الأبطال في يوم الوغى
وإخوته خمسون أعمامك جميع كلهم فرسان طعانة قنا
أربعة من الست يا ابني حقيقي كل واحد سبع ربي بالفلا
منهم أبوك المسمى كليب والفتى الزير المهلهل يا منى
والفتى عدي مع دريعان هذه الأربعة أتوا منها سوى
ثم ست وأربعين خلافهم من الجواري والسراري والإما
كلهم يا أمير أعمامك لهم كل واحد ألف يطعن في الوغى
وأبوك كليب ساد على الجميع بالفروسية مع جود وسخا
جاء جساس خالك غدر فيه وتركني بعده مثل الإما
وطردني عمك الزير بعده فرحت إلى أهلي دون الملا
قد كنت حامل فيك بعد أبيك فولدتك في تلك الحمى
رحت سميتك على اسم الكلاب صرت كأنك سبع ربي بالفلا
وأنا واللَّه من خوفي عليك قلت أخي شاليش إنه لك أبا
وأنا أعلمتك افعل ما تريد ما بقيت أخاف يا فخر الملا

فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاء شديداً ولام أمه على كتمان الأمر ثم إنه صبر إلى الليل حيث ركب إلى عمه المهلهل وبصحبته العبد أبو شهوان الذي أرسله إليه الزير وفي أثناء الطريق أراه العبد قصر أبيه وقبره المصفح بالذهب وعند وصوله إلى عمه دخل عليه وقبل يديه واجتمعت شقايقه ومن يلوذ به من أهله وأقاربه فوقعوا عليه وترحبوا به وكان الزير أفرح الخلق به ولما استقر به الجلوس قال الجرو: الحمد للَّه رب العالمين الذي جمع شملنا بعد الشتات فواللَّه العظيم رب موسى وإبراهيم لا بد لي من قتل جساس وأجعله مثلاً بين الناس لأنه فجعني بأبي الذي كان تاجي وفخري وتركني يتيماً طول دهري فقال له المهلهل: لا بد من قتله على رؤوس الأشهاد وأنت تكون الحاكم بعد أبيك على هذه البلاد ثم أنشد قائلاً:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل صفا عيشي ووقتي ما تعكر
أتاني السعد من رب البريا وزال النحس لما السعد بكر
فقبل ظهوره كنا حزانا نقضي الليل في قلق ونسهر

على فقد الفتى الماجد كليبا ثوى غدراً له جساس قنطر
وفي دمه كتب بالبلاطة وصايا عشر أبيات وأكثر
يوصيني بقوله لا تصالح فسالم أنت إن صالحت تخسر
واطرد للجليلة من حمانا عدوه كذبها ما كان أخضر
طردناها وهي بالجرو حامل ومن يقدر على رد المقدر
أنا فيهم فتكت بحد سيفي ونلت القصد منهم بالمشهر
وإني ما بكيت على كليب أخذت بثأره بالسيف مجهر
فأبكي حيث ما خلف ذكورا بنات الكل ما له طفل يذكر
ولما خالقي أنعم علينا وجانا الجرو كالسبع الغضنفر
صفا عيشي وقد نلت المقاصد وزال النحس عنا ثم أدبر
وبعد يا بني اسمع كلامي أنا عمك وأنت الليث قسور
فقم اجلس على كرسي أبوك وفي حال إخوتك تبصر

فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال الجرو: أطال بقاك ونصرك على جميع حسادك وأعداك وبلغك قصدك ومناك إنني واللَّه يا عم في قلق وغم فلا تزول أحزاني حتى آخذ بثأر أبي وأقطع رأس جساس وأجعله مثلاً بين الناس فشكره جميع أهله وأعمامه وبعد ذلك سأله الزير ما هو الرأي عندك يا ابن أخي؟ فأجابه الجرو الرأي عندي أني أغير عليكم نهار غد وآخذ نوقكم وجمالكم وأخبره بأني أتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغداً أجيء إليك برأس الزير ثم أبرز لأحاربك وتكون أنت واضعاً قربة من الدم تحت جانبك الأيمن فأطعنك بالرمح فخذه تحت إبطك والقِ نفسك على الأرض فتنشق القربة ويهرق الدم وأنا أصيح على جساس وأقول له: قد قتلت عدوك يا خالي تقدم إليه واقطع رأسه فقد ذهب الكدر وبلغنا اليوم الوطر وعندما يأتي عليك فتقدم إليه بالعجل وتعدمه الحياة وهو لا يعلم بقدومي عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة ونتخلص من هذه الورطة الوبيلة فاستصوب الزير رأيه ثم ودعهم وسار وحده إلى ديار بني مرة وعند الصباح ركب الجرو في جماعة من الفرسان وساق مواشي بني قيس من الرعيان باتفاق الأمير المهلهل ليث الميدان ففرح الأمير جساس وسادات بني مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة والنصرة ورأى جساس في تلك الليلة حلماً غريباً أبصر أنه ربى ذئباً كان يوده ويحبه فلما انتهى وترعرع تصاحب مع سبع كاسر فألفه إلى أن كان في

بعض الأيام أغار السبع على مواشي بني مرة وهجم على نسائهم وأولادهم وجعل يفترس كبارهم وصغارهم وكان الذئب يساعده عليهم فاغتاظ جساس من أفعال الأسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله وإعدامه فوثب عليه الذئب من ورائه ونهشه فألقاه صريعاً على الأرض فقام جساس مرعوباً من هذا الحلم ونهض في الحال وسار إلى الديوان وجمع إخوته وباقي السادات والأعيان وأعلمهم بذلك المنام فقالوا له: هذا أضغاث أحلام وما زالوا يهونون عليه حتى رق وزال عنه القلق والكدر ولما أصبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الأمير جساس وهو في قلق ووسواس وكان الجرو قد وعد بهلاك القوم وقتل المهلهل وفي ذلك اليوم التقى الفريقان وبرز الجرو إلى ساحة الميدان فبرز إليه الزير فالتقاه الجرو وطعنه بالرمح طعنة كاذبة فسحبها الزير من تحت إبطه فراحت خائبة وألقى نفسه على الأرض من ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم أنه قد مات وحلت به الآفات فعند ذلك صاح الجرو اللَّه أكبر على من طغى وتجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذي أهلك العباد ثم إنه صاح على جساس انزل يا خالي واقطع رأس عدوك فقد قتلته وكفيتك شره فلما رأى جساس الزير يتخبط بدمه فتقدم ونزل عن القميرة وهو يظن أنه قد بلغ غاية مراده ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه من لحيته وهجم الجرو أيضاً عليه ووضع الرمح بين كتفيه فعند ذلك علم جساس بأنها حيلة قد تمت عليه وتأكد عنده صحة المنام فأخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام:

قال جساس الذي شاهد وفاة ... يا سياج البيض في طعن القنا
إنني بك يا ابن أختي مستجير ... فأجرني يا ابن أختي من الفنا

فأجابه الجرو بهذه الأبيات:

أيا خالي اقصر عن كلامك ... دنا أجلك وقد وافى حمامك
تقول أجرني يا ابن أختي ... الا يا جرو أعطينا زمامك
قتلت كليب عدواناً وظلماً ... أتظن بأنني أسمع كلامك
وبعد كليب أصبحت حاكم ... تسامى في الملا أيضاً غلامك
طغيت وجرت في حكمك علينا ... فأذني لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا أن نجيرك ... فهذا ما تشوفه في منامك

فلما فرغ الجرو من كلامه توسل جساس إليه أن يعفو عنه وقال: باللَّه

اتركني لوجه الواحد القيوم فقال الجرو: لا بد من قتلك كما قتلت أبي حتى أكون قد بلغت أربي فقال لهما الزير: أراكما قد أطلتما الكلام والعتاب فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح في صدره خرج يلمع من ظهره فتقدم الزير وقطع رأسه ثم وضع الزير فمه على عنق جساس وشرب دمه وكان الجرو ينهش في لحمه حتى بلغ مراده وشفي فؤاده وسلموا رأس جساس إلى بعض العبيد ليعطوه إلى إخوته وهجم مع قومه في باقي الأبطال على بني مرة في الحال وأذاقوهم الوبال وبلغوا منهم الآمال ولما علم بنو مرة بقتل جساس أيقنوا بالموت لأنه كان القائد الأكبر وعليه الاعتماد في الحرب والطراد فولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وقتل المهلهل منهم في ذلك النهار خلقاً كثيراً منهم الأمراء والقواد والسادات والأمجاد وأما الذين سلموا منهم فإنهم طلبوا الأمان من الزير والجرو فأجاروهم وعفوا عنهم بشرط أن يكونوا مثل العبيد لا ينقلون سلاحاً ولا يحضرون حرباً ولا كفاحاً ولا يوقدون ناراً لا ليلاً ولا نهاراً ولا يعرف لهم قبر ميت ولا دار إلا مشتتين في البراري والقفار يقضون حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمار وإن غابت نساهم في النهار لا يسألها بعلها أين كانت بل يسألها عما جابت وليس لهم صنعة غير الرقص والخلاعة فقبلوا بهذه الشروط بكل رضا وقناعة وبعد هذه الشروط تسلطن الجرو على كل القبائل نظير أبيه وطاعته وفرحت بنات كليب وزال عنهم الغم والترح وخلعن عنهن الثياب السود وكان ذلك النهار عندهم أعظم من الأعياد وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان فسمى أحدهما تغلب والثاني مالك ولما بلغا سن الرجولية زوجهما بابنتين شقيقتين وهما بنات الأمير هلال حاكم حماه وزوج أخته اليمامة للأمير مفلح ابن الأمير المذكور وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحرب بين قبائل العرب وكان أفرح الناس الأمير مهلهل وكان الجرو قد عرض عليه الزواج فامتنع وكان منعكفاً على الجلوس في الخيام وأكل الطعام وشرب المدام وأقام له الجرو عشرين عبداً برسم الخدمة وكان يرقد وينام وهو لابس آلة الحرب والصدام لأنه كان قد اعتاد عليها مدة الحروب التي امتدت نحو أربعين عاماً.

هذا ما كان من أمر المهلهل في تلك الأيام وسوف يقع له حديث وكلام وأما الجرو فإنه كان قد زوج أربعة من شقايقه إلى جماعة من الأمراء وصنع لهن ولائم وأفراحاً مدة طويلة وأما ولداه مالك وتغلب فإنهما بقيا مدة خمس عشرة سنة ولم ينجبا أولاداً من بنات الأمير هلال المذكور وبعد نهاية المدة طلبت

نساؤهما زيارة أهلهما في حماة فطلب أزواجهما من أبيهما الجرو أن يأذن لهما بذلك فأمر لهما فسافروا مع نسائهم إلى تلك الأطراف ولما علم الأمير بقدوم أصهاره بنسائهم خرج لملتقاهم مع ولده الأمير مفلح وخرجت معهما اليمامة زوجة الأمير مفلح وخرج أيضاً أكابر المدينة فالتقوهم بالترحاب والإكرام وأنزلوهم في أحسن مكان وأقاموا في تلك الأوطان مدة من الزمان وهم في سرور وانشراح ولما صمم الأميران مالك وتغلب على الرجوع إلى الأطلال مات الأمير مفلح مع أبيه الأمير هلال فأقاما يحكمان تلك الديار وانقادت لأمرهما أهل تلك البلاد وكانا محبوبين من جميع العباد وأما اليمامة فبعد وفاة بعلها ذهبت إلى عند أهلها فاتفق ذات يوم أن الأمير مالك قال لأخيه تغلب: اعلم يا أخي أنه قد مضى على زواجنا زمان ولم نرزق بولد ذكر يبقى لنا ذكراً فدعنا نتزوج على نسانا فلعل اللَّه يرزقنا بأولاد وإلا انقطع نسلنا من بين العباد فأجابه تغلب من الصواب أن نصلي للَّه في هذه الليلة ونتضرع إليه أن يرزقنا أولاداً من نسائنا لأنه على كل شيء قدير فامتثل أخوه رأيه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب وأنشد تغلب قائلاً:

يقول الفتى تغلب على ما جرى له بدمع جرى فوق الخدود نهور
أقول وفي قلبي من البين لوعة وبي حسرات طي الفؤاد تثور
لفراق أبينا الجرو والزير عمنا عليهم قلبي والحشا مكسور
يا رب يا رحمٰن يا سامع الدعا عليك اتكلنا يا جابر المكسور
سألناك ربي بالخليل وابنه بحق الذي إليه العبيد تزور
فيا رب يا رحمٰن اجبر قلوبنا بجاه عيسى وموسى الفاضل المشهور
بجاه داود ويحيى مع الخضر وبالعرش والكرسي وبحر النور
ترزقنا ولدين يحيوا ذكرنا يا من ترزق كل وحش وطيور

وكان الأمير تغلب ينشد هذه الأبيات وأخوه مالك يقول آمين يا رب العالمين فاستجاب اللَّه دعاهما ولم يخيب شكواهما فما مضت مدة يسيرة حتى حبلت نساؤهما ولما تمت أيامهما ولدتا في يوم واحد فوضعت زوجة مالك أنثى وزوجة تغلب ذكراً فقامت في الحي الأفراح وكان أبوهما في الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشرهما بذلك واسمه سرور فلما أقبل سألاه علامك يا سرور أبشير أم نذير وأشار إليهما بهذه الأبيات:

مقالات الداعي المسمى سرور يا سادتي أتيتكم قاصد بشير

يا أمير مالك أتاك بنت كالقمر ووجها كالشمس والبدر المنير
وأنت يا تغلب أتاك غلام يفرح القلب المتيم يا أمير
أتيت إليكم حالاً بلا بطأ فوق حمرا كأنها طير يطير
أريد منكم يا كرام بشارتي اجبروا باللَّه قلبي الكسير

فلما سمعا كلام العبد فرحا فرحاً شديداً واعتقا العبد وأعطوه ألف دينار ولما حضرا إلى الحي أمرا بذبح الذبائح وأولما الولائم وأقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين وأرسلا حالاً يعلمان أباهما وعمهما الزير ويبشرانهما بذلك وسميا الغلام الأوس والبنت مي وتعاهد الأخان على زواج البنت بالغلام إذا كبرا ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جداً وشكرا اللَّه على هذه النعمة العظيمة وركب الجرو في جمع غفير من قومه وأبطاله وسار لمشاهدة أولاده لأنه كان في غاية الاشتياق لهما ولما اقترب من تلك الديار وبلغ ولديه خبر قدومه خرجا لملتقاه في موكب عظيم وعندما التقوا ببعضهما سلما عليه ووقعا على يديه يقبلانها فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما وسألاه عن عمهما فأجابهما أنه بخير وعافية وأنه ما زال في خيامه ملازماً طعاماً مع مدامه ثم سار إلى المدينة وكان ذلك اليوم أعظم من يوم الزينة ونزل الجرو في القصر الكبير ووقف بخدمته الكبير والصغير والمأمور والأمير وأقام في تلك الديار مدة شهرين كاملين وفي آخر هذه المدة مرض ابنه تغلب مدة عشرة أيام ومات فحزن عليه الجرو حزناً عظيماً وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احترام ولما عزم الجرو على الرجوع استدعى ولده مالك وأوصاه بالرعية وأن يعدل في حكمه وأن يزوج بنته مي بابن أخيه الأوس ثم سار يقطع القفار إلى أن وصل إلى أطلاله واجتمع بأهله وعياله: أما الأمير مالك فإنه اعتنى بتربية ابنته وابن أخيه كما أوصاه جناب أبيه حتى كبرا وبلغا درجة الكمال وكان الأوس يركب ظهور الخيل ويتعلم الفروسية مع الفرسان واستمر ذلك مدة من الزمان حتى صار من صناديد الرجال وشاع ذكره في كل مكان وكانت ابنة عمه مي من أجمل النساء وكان الأوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروح في جسدين وشاع ذكرها في قبائل العربان وتواردت على أبيها الخطاب وسمع بها الصنديد ابن الأكوع وهو ابن عم الملك تبع حسان فعشقها على السماع وكان من الملوك العظام فأرسل وزيره ليخطبها من أبيها فلما وصل الوزير وعلم مالك بالخبر فقال: واللَّه هو نعم الصهر وبه أنال الفخر على طول الدهر غير أنه لا خفاك أطال اللَّه عمرك وأبقاك بأن ابنتي مخطوبة لابن عمها الأوس

ونحن الآن مباشرون بأمر العرس فلا يمكنني أن أنقض الكتاب وهو الذي يمنعني عن الإيجاب فقال له الوزير: اكتب لي الجواب بالحال فكتب له هذه الأبيات:

يقول الفتى مالك على ما جرى له بدمع جرى فوق الخدود صدود
أيا غادياً مني على متن ضامر تسابق لضرب المرهف المردود
تهدي هداك اللَّه خذ لي رسالتي أعطيه مكتوبي تنال سعود
إذا جيت الصنديد فقل له بأني على طول الزمان ودود
وهي ترى مخطوبة لابن عمها ومعها تربى والأنام شهود
فحاشى لمثلي أن يخون أقاربه وأفسخ زمامي ثم أكون عنود
ترى الأوس روحي يا أمير ومهجتي وهو عندنا أعز من المولود
فلو كنت أعطيها لغير ابن عمها لكنت اليوم أولى بالمقصود

فأخذ الوزير هذا الجواب ورجع إلى عند الصنديد وأعطاه إياه فلما وقف على حقيقة الخبر خرج عن دائرة الصواب فغير زيه وتنكر وركب جواده وسار إلى تلك الديار وحده وعند وصوله إلى مضارب الأمير لم يكن في الحي إلا النساء والبنات فسأل بعض النساء عن غياب الرجال فقالت: منهم من سار إلى القبائل ليعزموا الناس للعرس والفرح ومنهم من ذهب مع الأمير مالك للصيد والقنص ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان وأركز رمحه ووقف على الباب وقال: هيا يا أصحاب البيت فقد أتاكم ضيف من أبعد مكان وكانت مي داخل الخبا فما ردت جواباً وما أبدت خطاباً ولما أبطأت عليه بالجواب عرف أن الصيوان خالٍ من الرجال فأنشد يقول:

قال الفتى الغريب الذي شكا ولي قلب بين الجوانح ذاب
أتيت قاصد مالكاً في حاجة ولي ساعة واقف وأنا في الباب
يا أهل هذا البيت أين أميركم وأين مضى من الديار وغاب
يا ربة البيت الذي داخل الحما ما لكم لا تردوا علينا الجواب
ألا فأخبروني يا بنات بحالكم قلبي غدا لأجلكم مرتاب
إذا كان أهل الحي غابوا جميعهم أما فيكم كريمة ذات حجاب
فتقري ضيفاً قد أتى من غربة وتسير أهاليها مع الغياب
أكيد ما كل النساء تسير الفتى ولا كل من يحوى الردية صاب

فلما سمعت من شعره ونظامه وعرفت قصده ومرامه أخذتها الغيرة والمروءة لتستر عرض أهلها من القيل والقال وأشارت قائلة:

تقول فتاة الحي مي التي شكت ألا فاسمع للقول يا نجاب
يا مرحباً بالضيف لما زارنا لك الخير والإكرام والترحاب
انزل مكانك حتى أحضر الغدا وتأكل من زادنا والشراب
أنا بنت مالك راح للصيد والدي مع ابن عمي الأوس والأحباب
انزل حتى يرجعوا رجالنا ويأتوا لنحو الحي بعد غياب
فكم جاء إلينا يا أمير مثالكم خلائق كثيرة ما لهن حساب
نحن نحب الضيف إذا جاء محلنا انزل واجلس جانب الأطناب

فلما فرغت من شعرها ونظامها هام الصنديد في حبها ورفع ستار الخيمة بسنان رمحه فوجد صبية بديعة الجمال فزاد به الوجد والبلبال فصاحت من خلف الستار وقالت: علامك تنظر بنات الملوك يا غدار ثم ردت منديلها على وجهها وقالت له: لا شك أنت قليل الحياء فإن كنت ضيفاً كما تقول فانزل كي آتيك بالغدا وإلا فما هذه الوقاحة ثم قالت لجاريتها: اطعلي افرشي له حتى يجلس ويتغذى لبينما يأتي أبي من البرية فقالت له الجارية: انزل في الصيوان فقال لها: عيب علي أنزل عند الحريم وأنا سيد عظيم وأنا ما أتيت إلا لأخذ مي إلى الأطلال وأتزوج بها في الحلال وقد نلت مرادي وحصلت مسرة فؤادي ثم إنه دخل إلى ذلك المكان وهو مسرور فرحان وسحب مي من خدرها وأردفها خلفه وسار يقطع القفار ويوصل سير الليل بالنهار حتى وصل إلى الديار ولما سمعت أكابر قومه بقدومه ظافراً غانماً اجتمعوا إليه وهنوه بالسلامة وسألوه عن سفرته وما جرى له في غربته فقال: إني عند وصولي إلى الأطلال هجمت على الفرسان والأبطال ومددت أكثرهم على الصحصحان وفعلت فعالاً تذكر على مدى الأيام وقتلت مالك وابن أخيه الأوس وأتيت إلى هنا بالعروس وقد بلغت غاية المنى فلما سمعت مي هذا الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام فنهضت على الأقدام وقالت له أمام السادات والأعيان: لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الإله الديان لو أن أبي وابن عمي حاضران لما كنت رجعت سالماً إلى وطنك واجتمعت بأهلك وخلانك ولكنك خطفتني بالاحتيال وهربت في الحال قبل أن تدركك الرجال ويحل بك الوبال ثم إنها بعد هذا الكلام بكت بدموع سجام ولما

سمع الحاضرون فحوى كلامها خافوا من العواقب وعلموا أن الصنديد في حديثه كاذب وأما الصنديد فإنه اغتاظ من هذا الكلام ونهض ولطمها على وجهها وقال لها: هكذا تتكلمين يا بنت اللئام أمام السادات الكرام ثم سل سيفه من غمده وأراد أن يعدمها الحياة فعند ذلك وثب الوزير وباقي الأمراء وردوه عن ذلك العمل وقالوا له: أنت أمير تجعل عقلك كعقل النساء فماذا تقول عنك الملوك إذا سمعت بذلك وما زالوا يتوسلون بالكلام حتى لان وكان له سجان قلبه أقوى من الصوان فاستدعاه إليه فحضر وكان اسمه عمران بن الأزور فقال له: خذ هذه الملعونة إلى بيتك وسلمها إلى زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها العذاب الشديد وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات في النهار وتطعمها خبز الشعير فأخذها إلى زوجته وأخبرها بأمر الصنديد فقالت: إن هذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولا تستأهل غير الإعزاز والإكرام وهي كأنها البدر التمام فقال: وكيف العمل ونحن عبيد الملك الصنديد فعند ذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية وألبستها ثوباً من شعر الخنزير وأرادت أن تضربها بالسوط على قدميها فوقعت على رجليها وجعلت تبكي وتثني عليها ثم أنشدت قائلة:

بـاللَّـه أن تـرثـي إلـى أحـوالـي فـالـدهـر فـرق صـحـبـتـي وعـيـالـي
يـا وحـدتـي يـا ذلـتـي يـا غـربـتـي قـد صـرت بـعـد الـعـز بـالأغـلال
قـد كـنـت فـي جـاه ورفـعـة مـنـصـب والـلَّـه ربـي عـالـم الأحـوال
فـتـرفـقـي هـذا الـنـهـار بـحـالـتـي فـلـعـل ربـي يـسـتـجـيـب لـحـالـي
ويـعـيـدنـي بـعـد الـعـنـاء لـمـوطـنـي وأرى جـمـيـع الأهـل والـعـيـالـي
إنـي كـريـمـة مـن أكـابـر عـشـيـرتـي فـاقـوا الـورى بـالـجـاه والأفـضـال
ولـهـم وقـائـع فـي الـبـلاد جـمـيـعـهـا بـيـن الـمـلـوك وزمـرة الأبـطـال

فلما فرغت من شعرها ونظامها رق قلبها وقالت لها: قري عيناً وطيبي قلباً فإني سأعمل معك معروفاً لوجه اللَّه ثم جاءت بجلد جاموس وفصلته ثوباً وألبستها إياه تحت الثياب وقالت: متى ضربتك لا تشعرين بالضرب وقصدي أن يسمع الملك صوت الضرب وأنت تصيحين وتستغيثين وأنا أقدم لك طلبات من المأكل والمشروب وفي الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة ليأتي اللَّه بالفرج فشكرتها على معروفها ودعت لها بطول العمر ووعدتها بالجميل والخير الجزيل هذا ما جرى لمي أما أبوها فإنه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح

والبكاء فسأل عن الخبر فأخبرته زوجته بواقعة الحال فغاب عن الصواب من شدة الغيظ وأما الأوس ابن عم الصبية فإنه غشي عليه لأنه كان يحبها محبة عظيمة ولما أفاق أنشد يقول:

يقول الأوس ابن تغلب قصيداً ألا يا مي من هذا دهاك
أتاك اللص من غيبة أبيك ولم يعلم بما يسعى وراك
ألا يا بنت عمي لو تريني على فقدك أنا محزون باكي
ترى في أي أرض قد حللت فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي أغزي دياره وأقتله وأفرح في لقاك
وأبذل كل مجهودي لأجلك وروحي بعد ذلك فداك
لما قال الفتى الأوس بن تغلب فقلبي قد تعلق في هواك

فلما فرغ الأوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشياً عليه وبقي طول ذلك الليل في غم وقلق شديد ما عليه من مزيد فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له طب قلباً يا ولدي فما يصلح الحزن إلا للنساء فاصبر لبينما نرسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعد ذلك نسير إلى دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله فقال الأوس: من يذهب فواللّه لا يذهب غيري ولا سرت إلا وحدي ولا أريد رفيقاً ولا معيناً إلا رب العالمين ثم نهض واعتد بآلة حربه وجلاده وركب جواده وودعهم وسار وجد في القفار ودموعه تجري كماء الأنهار وهو لا يدري إلى أين يذهب وإلى أي حلة يقصد من قبائل العرب إلى أن وصل إلى وادٍ عميق ضيق الطريق كثير الأشجار والوحوش والأحجار فبينما هو يتأمل ذلك المكان وإذ ظهر عليه أحد الفرسان وهو بالسلاح الكامل وللفروسية عليه علايم ودلائل فلما رأى الأول منفرداً مال إليه وقال: انزل يا جبان عن الحصان واخلع ما عليك من الثياب وفز بنفسك في هذه الهضاب قبل أن أسقيك كأس العطب فأنا جمرة بن مرة فارس العرب فلما سمع الأوس هذا الكلام صار الضيا في عينيه كالظلام وهجم عليه في الحال وصدمه صدمة تزعزع الجبال فالتقاه جمرة والتحما في ساحة المجال واشتد بينهما القتال وتجولا ساعة من الزمان وهما في ضرب وطعان تقشعر منه الأبدان فاختلفت بينهما طعنتان قاتلتان كان السابق الأوس بن تغلب فجاءت في صدر جمرة خرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلاً وفي دمه جديلاً

فأخذ عدته وجواده وجد في المسير وهو يقطع البراري والآكام مدة خمسة أيام واتفق في اليوم الخامس أنه التقى بفارس وهو يجد في قطع القفار كالسهم الطيار فتقدم إليه وسلم عليه وقال له: إلى أين أنت سائر وإلى من تنتسب من القبائل والعشائر؟

قال: إنني من عبس وعدنان أصحاب الفضل والإحسان وإني سائر إلى ديار بني عامر لأستدعي حامينا عنتر بن شداد فارس الخيل لأنه سار مدة عشرة أيام ليحضر وليمة دعاه إليها عامر بن الطفيل وفي غيبته غزانا عمرو بن معدي كرب الزبيدي في خمسة آلاف فارس فحاربنا محاربة شديدة وجرى بيننا وبينه وقائع عديدة فأرسلني مولاي قيس بن زهير لأستدعيه للحضور قبل أن يظفر بنا عمرو المذكور فقال الأوس وقد تعجب: ومن هو عنتر بن شداد؟ فقال: هو فارس الصدام الذي اشتهر ذكره في هذه الأيام بطعن الرمح وضرب الحسام وقهر كماة الجبابرة وحارب الملوك الأكاسرة والقياصرة وافتخر على الفرسان في ساحة الميدان فلما سمع الأوس هذا الخبر تحير وانبهر ثم ودعه وجد في قطع البر الأقفر وما زال يقطع البراري والآكام مدة سبعة أيام حتى أشرف على جماعة من العبيد ترعى الأغنام فحياهم بالسلام وسألهم عن ابنة عمه بهذا الشعر والنظام:

يقول الفتى المضني المنغص ما به ... دمعي من فوق الخدود سايح
ألا يا عبيد الخير باللّه اشفعوا ... لصب بعيد الدار ولهان نازح
فجسمي وجيع مستهام ملوع ... تركه البين مضنى كثير الجرايح
لقد ضاع لي حرة عفيفة من الخبا ... فهل من يبشرني بها فوالح
ويبخرني لأي البلاد توجهت ... من أجلها ناري تزيد اللفايح
لقد أحرقت قلبي ولبي ومهجتي ... وكل عظامي أوثقتهم جرايح

قال الراوي: فلما فرغ الأوس من كلامه تقدم إليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له: اعلم يا غلام أنه من برهة عشرة أيام سبى أميرنا الصنديد ابنة اسمها مي لا يوجد أجمل منها في نساء هذا الحي وأراد أن يتزوجها فامتنعت عنه فقيدها بقيود من حديد وكل يوم يعذبها العذاب الشديد فعسى تكون الحرة التي ذكرتها في نظمك أفرج اللّه همك وغمك فلما سمع الأوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان ووعده بالجميل والإحسان فبينما هما بالحديث والكلام إذ بسعد ابن أخت الصنديد قد أشرف في

ذلك الوقت ليتفقد المراعي فنظر الأوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال: هذا ابن عم الصبية مي التي عند خالك الصنديد وقد جاء ليكشف أخبارها ويرجع بها إلى ديارها فلما سمع هذا الكلام رجع إلى خاله وأعلمه بما رأى وأشار إليه يقول:

قال سعد قد أتيتك منذراً يا خال فاسمع مني الأخبارا
البنت التي غربتها عن أهلها من خلفها فارس أتاك جهارا
يا خال فارس في اللقا مجرب وعيونه يا خال تقدح نارا
إن كان راقت لك ليالي الصفا فبصفوها تأتي لك الأكدارا
قد جاء إلى عند العبيد يسأل أنبؤوه فجاء كالأسد الهدارا
لما سمعت أتيت نحوك عاجل وهذا الذي تم يا خال وصارا

فلما فرغ سعد من شعره ونظامه وفهم الصنديد فحوى كلامه قال له: فارس أوحد؟ قال: نعم أيها السيد المحتشم فشتمه خاله وقال: ارجع وخذ روحه من بين جنبيه فإنه لا يليق بي أن أركب لقتال صعلوك من صعاليك العرب فخرج سعد من عند خاله وقصد الأوس فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليه فالتقاه الأوس كالأسد وضربه بالحسام المهند فالتقاه على الأرض ممدداً وأخذ سلبه وثيابه ووصل خاله الخبر طار من عينيه الشرر وركب ظهر جواده واعتد بعدة جلاده وقصد الأوس حتى التقى به فانطبق عليه كليث الآجام وأخذ معه في القتال والكفاح ولم تكن إلا ساعة حتى أثخن بالجراح فولى وطلب لنفسه الهرب فتبعه الأوس مثل السرحان حتى وصل إلى الصيوان فدخل الصنديد واحتمى عند الحريم وقالت له زوجته: سعداً علامك داخل وأنت مرعوب كل هذا لأجل الابنة التي خطفتها وما نلت المرغوب فإنك تستحق أكثر من ذلك ثم وبخته بالكلام وقالت له: أنت تدعي الفروسية على كل واحد وتهرب من أمام أمرد وصاح الأوس: اخرج يا لئيم من بين الحريم حتى أجازيك على تلك الفعال يا غدار يا محتال فخاف الصنديد وقال لزوجته: أعطيه مي واكفينا شره فخرجت زوجته إليه وقبلته وطلبت منه العفو والسماح فأعطاهم الأمان فجاؤوا له بابنة عمه مي بعد أن ألبسوها الثياب الفاخرة وذبحوا لهم الذبائح وقدموا لهم الأطعمة المتكاثرة ولما اجتمع بها زال عن قلبه الكدر ومن فرحه أخذ يسكب العبرات وهكذا فعلت مي وكان ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد.

قال الراوي: فباتا تلك الليلة في الحلة وعند الصباح أركبها في هودج وسارت معه جماعة من العبيد وتوجه قاصداً دياره ولما اقترب من بلاده أرسل يبشر عمه الأمير مالك بقدومه وشاع الخبر في الحي فخرجت النساء والبنات وأكابر السادات ولما اجتمعوا ببعضهم البعض نزل الأمير مالك فسلم على الأوس وابنته وشكر ابن أخيه على أفعاله وعند وصوله إلى الخيام حدثهم بحديث عنتر وما سمع عنه من الخبر فقال عمه: واللَّه سمعنا بذكره وإنه من أفرس فرسان عصره وبعد ذلك ذبحوا الذبائح وأولموا الولائم ثم زفوا الأوس على ابنة عمه فكانت ليلة من أعظم الليالي حضرها جمهور من السادات والموالي فزادت أفراح الأوس بتلك العروس وحظي بذلك الحسن والجمال وعاش معها بأرغد عيش وأحسن حال وبعد ذلك وضعت له غلاماً سماه مالك وله حديث طويل فاتفق بعد عشرة أيام أن عم الأوس ضعف ضعفاً شديداً وبعد مدة مات فحزن الأوس عليه ودفنه بالاحترام والوقار وبكت عليه الكبار والصغار لأنه كان موصوفاً باللطف والإيناس ومحبوباً من جميع الناس وأرسل يعلم جده بذلك فحزن وتكدر فقالت أخته اليمامة: أرسل يا أخي وأحضر ابن ابنك الأوس مع أهله ليجتمع شملنا مع شمله فأجابها إلى ذلك وفي الحال أرسل رجل من بني عمه ليحكم مكانه فجاء الأوس مع أهله وسكن عند الجرو وجده وراق لهم الزمان أما ما كان من البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فإنه كان قد أحناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب على أكل الطعام وشرب المدام وكان لا ينام إلا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زال على هذه الحال حتى برز له أسنان جدد وصار عقله كعقل الولد وكانت بنات أخيه تخدمه وتداريه فاجتمع يوماً بالجرو وقال: يا ابن أخي قد ضاقت أخلاقي من الوحدة والانفراد فأريد منك أن ترسلني مع بعض الأتباع للتنزه في البلاد فأجابه إلى ما طلب وأركبه في هودج وأعطاه عبدين برسم الخدمة وجميع ما يحتاج إليه من لوازم السفر فودعه المهلهل وما زالا يجولان به حتى اقتربا من بلاد الصعيد وكانا قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من التعب أشد الضيق فصمما على قتله وإعدامه بالكلية ويقولان لأهله قد أدركته المنية فعرف الزير ذلك منهما فقال: قد دنا حمامي وليس إلا القبر أمامي فإذا أدركتني منيتي أريد منكما أن تبلغا أهلي وصيتي قالا: وما هي فعاهدهما على حفظها وتأديتها فحلفا له بأعظم الأقسام بأنهما يبلغانها بالكمال والتمام فقال: إذا وصلتم الحي فأقريا أهلي مني السلام وانشداهم هذا البيت وقولا لهم إني في

القبر قد اختبيت:

من مبلغ الأقوام أن مهللاً لله دركما ودر أبيكما

وكرره عليهما حتى حفظاه ولما دخل الليل ذبحاه ودفناه تحت التراب ورجعا إلى ديارهما ودخلا على سيدهما الجرو وأعلماه بموت عمه الزير فبكاه بكاء شديداً هو ومن حضر ثم إن العبدين اقتربا من الجرو وأنشداه البيت المذكور.

فلما سمع الجرو هذا البيت استغربه حيث لا معنى له فاستدعى أخته اليمامة وكانت من أذكى نساء العرب وعلّمها عمها ذاك البيت فلطمت على وجهها وبكت وقالت: إن عمي لا يقول أبياتاً ناقصة بل أراد أن يقول:

من مبلغ الأقوام أن مهلهلاً أضحى قتيلاً في الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لا يبرح العبدان حتى يقتلا

ثم إنهما قبضا على العبدين وألقوهما تحت العذاب والضرب الشديد فأقرا بأنهما قتلاه ودفناه فقتلهما الجرو في الحال وهكذا انتهت حياة الزير وقد أخذ ثأره في حياته وبعد مماته وبعد وفاة الزير وضعت امرأة الأوس غلاماً سموه عامراً ولما بلغ سن الرجولية تزوج بامرأة من أشراف العرب فولدت له في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو غلاماً فدعاه هلال وهو جد بني هلال وكان من أعقل العرب ولما كبر الأمير هلال تزوج امرأة ذات حسن وجمال فولدت له غلاماً ادعاه المنذر واتفق أن هلالاً زار مكة في بعض السنين في أربعمائة فارس كرار وكان وقتئذٍ ظهور النبي المختار ﷺ وعند وصوله إلى مضارب الخيام طاف هو ورجاله حول الحرم وتشرف بمقابلة النبي ﷺ وقبله بين عينيه فأمره النبي ﷺ أن ينزل في وادي العباس في تلك الأيام يحارب بعض العشائر فعاونه الأمير هلال وأمده العساكر وقاتل معه وكانت فاطمة الزهراء رضي اللّه عنها راكبة في هودجها فلما رأت الحرب زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال فشرد بها في البراري والفلوات ولما رجعت دعت على من كان السبب في البلاء والشتات فقال لها والدها ﷺ: ادعي لهم بالانتصار فإنهم بنو هلال الأخيار وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار فدعت لهم فنفذت فيهم دعوتها على طول الدهر.

(تمت قصة الزير أبو ليلى المهلهل)

# فهرس المحتويات

(الملحمة الكبرى للتبع حسان) ..... ٢٥
حرب البسوس بين بكر وتغلب ..... ٤٦
حرب برجيس الصليبي مع اليهود ..... ٩٢